

الفصل الثالث

ذكر بعض أوصاف المنافقين وخصالهم وإنزالها

على منافقي زماننا

هذا الفصل من أنفع فصول الكتاب - إن شاء الله تعالى - ذلك أنه يتناول أوصاف المنافقين، كما جاءت في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسوله ﷺ، حيث فضحهم الله ﷻ بذكرها، وفي ذلك تحذير للمسلمين الصادقين من هذه الصفات، وتحذيرهم من الانخداع بالمنافقين ومكرهم وخيانتهم وكذبهم وأساليبهم الملتوية.

كما يتميز هذا الفصل بإنزال هذه الصفات على منافقي زماننا اليوم وفضحهم بها، وبيان نفاق المنافقين في واقعنا المعاصر، قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ولتستبين سبيل المجرمين ﴿[الأنعام: ٥٥]﴾.

والحديث عن صفات المنافقين في كل زمان ومكان يكشف لنا طرفاً من إعجاز القرآن الكريم، حيث فضح السابقين منهم برغم

خفائهم وتسترهم بنفاقهم، وبقيت آيات القرآن بين أيدينا هادية لمعرفة المنافقين في كل زمان ومكان، وذلك بتكرار هذه الصفات في منافقي كل زمان ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

إن حركة النفاق ليست قصة ماضية، ولكنها حقيقة باقية، تعددت مسمياتها، واختلفت وسائلها، واتحدت في أهدافها وسماتها، وكما قال حذيفة رضي الله عنه: «والمنافقون الذين فيكم أشر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ. فقليل: وكيف ذلك؟! قال: إن أولئك كانوا يسرون نفاقهم، وإن هؤلاء يعلنون»^(١).

وقال الإمام مالك رحمه الله: (النفاق في عهد رسول الله ﷺ هو الزندقة فينا اليوم)^(٢). ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: (والمنافقون ما زالوا ولا يزالون إلى يوم القيامة)^(٣). وقبل ذكر هذه الصفات تجدر الإشارة إلى مسألة مهمة، ألا وهي أن المتأمل في صفات المنافقين الواردة في كتاب الله ﷻ ليجدها بكثرة وأشد خبثاً في منافقي زماننا، ولا يجد المرء عناء في التمثيل من الواقع على هذه الصفات. بل إن منافقي زماننا قد فاقوا سلفهم من المنافقين الأولين، فجاء نفاق أهل زماننا أغلظ نفاقاً من سابقهم، وذلك من وجوه عدة أهمها:

(١) سبق تحريجه.

(٢) سبق تحريجه.

(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ٢١٢.

الوجه الأول: المنافقون الأولون قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]، وقال الله ﷻ عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

ومنافقو زماننا يجاهرون المؤمنين ويصارحونهم بالاستهزاء والسخرية، ويتهمون العلماء والدعاة بالسَّفه والانغلاق، ويظهرون المودة والولاء والتبعية لأعداء الإسلام، دون رادع من إيمان أو خوف أو ورع.

الوجه الثاني: المنافقون الأولون إذا وضح لهم خطؤهم وبين لهم حكم عملهم أو قولهم في الدين وأهله، وانكشف أمرهم وحكم فعلهم وقولهم، جاؤوا معتذرين، مظهرين الندم، ملتجئين العفو، كما حدث في غزوة تبوك وغيرها.

ومنافقو زماننا حادوا الله ورسوله بأقوالهم وأفعالهم، ولزهم للدين وأهله، وإفسادهم في الأرض وعدم الإصلاح، وأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، بدعواتهم بالاختلاط والسفور، وإدخال السينما للمجتمع والدعوة لحضوره.. والدعوة للاختلاط والدعوة لإقامة الحفلات الغنائية لا داعي لها، وإذا نوصحوا مشافهة أو كتابة تكبروا وتغطرسوا، وكتبوا النقد والردود، وأوغلوا في الكبرياء، وربما تعاملوا عن النصيح، فلم يقبلوه اعتزازًا بالإنثم.

الوجه الثالث: المنافقون الأولون أرادوا تكوين مقر لإدارة مكرهم وكيدهم للأمة، فدمر هذا المقر في أسرع وقت افتضح أمرهم، وبذلك انطفأ عن الأمة كثير من شرورهم، لأنه لو تم لهم ذلك المقر والله أعلم لكان بؤرة ومرصدًا لكل من يحاد الله ورسوله.

أما منافقو زماننا فمقراتهم عديدة وجمعياتهم ومؤسساتهم الاستخباراتية كثيرة، تزداد يوماً بعد يوم، شيدت إرسادًا لمن حارب الله ورسوله، ولزعزعة الدين، ومسح الأمة، ليصبح هذا الكيد والمكر في جسد الأمة يطبع وينشر بالآلاف بل بالملايين، والعجب إن هذا النفط السام يتقاضون عليه المليارات، والأنكى والأمر أن هذا الكيد والمكر يصل إلى البيوت والمؤسسات، ويعم المدن والمحافظات والقرى والمراكز والهجر.

الوجه الرابع: المنافقون الأولون يعرفون بهذه التسمية فقط، ومن وقع عليه هذا الوصف (منافق)، أو حام حوله، حذره الناس وتحرزوا من شره.

أما منافقو زماننا فقد انطلقوا على الناس، وخرجوا بغير اسمهم الشرعي، وذلك زورًا وبهتانًا فهم ربما كانوا أدباء -محررين- كتابًا -دعاة تحرير- دعاة للتراث الشعبي -ليبراليين- علمانيين -دعاة عولمة- دعاة للحدثة والتجديد للحوار -وتقمصهم أحيانًا ثياب الدين،

زيادة في التلبيس والغش والادعاء والزور، ثم خلعوا هذا الثوب ومزقوه بعد انقضاء مآربهم.

الوجه الخامس: المنافقون الأولون لم يتخصصوا في الهجوم على الشريعة وأصولها بشكل محكم ومنظم، فلم يعهد إنهم نظموا حملة للطعن في تعاليم الإسلام، مثل وجوب الحجاب، أو جواز تعدد الزوجات، أو تحريم الاختلاط.

أما منافقو زماننا فنجد من إعراضهم عن التحاكم إلى شرع الله وصد الناس عن الحكم بما أنزل الله بتدبيرهم ومجاهرتهم بالحملات المحمومة الآثمة، ويتقاسمون أدوارها على عفاف المرأة وكرامتها وعلى تعدد الزوجات، فلهم التنظيم المتواصل على إباحة الاختلاط وشيوع الرذيلة وتعطيل الشريعة، واعتراضهم على وجود هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي من عقائد الإسلام، وواجب من واجباته، ونقدتهم الشديد لهم ولمز المؤسسات الشرعية والخيرية، وهذا المكر والهجوم يستخدم فيه التضليل بالآثير والقلم والصورة وكل وسيلة متاحة لهم. وعجباً لبعض بلاد المسلمين الذين لم يعرضوا هؤلاء حتى للمساءلة، بينما لو تعرضوا للدستور الدولة أو حكامها بالنقد لحوسبوا وعوقبوا.

الوجه السادس: المنافقون الأولون يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، ويحاولون جاهدين ألا يعرفهم أحد، لأنه لو ظهر أمرهم لأدبهم المجتمع المسلم بالهجر والزجر والفضح والمقاطعة.. ولحصل الحذر من التعامل معهم، ولردت مقالاتهم.

أما منافقو زماننا فيعلنون مكرهم وأفكارهم وأقوالهم شاهرة ظاهرة، دون حياء من الله أو حياء من الناس، ولا يستخفون من أحد، بل يتصدرون منابر الكلمة، وتبرز صورهم في القنوات الإعلامية، يشاهدهم ملايين الناس بالصوت والصورة، وقد شرحوا بالنفاق صدرًا دون حياء أو استخفاء^(١).

الوجه السابع: المنافقون الأولون تطبق عليهم الأحكام العامة فيما يقولون ويعملون: صغروا أم كبروا كغيرهم من الناس.

أما منافقو زماننا فينطق أحدهم بالكفر، ويتشدد بالردة، ويوغل في هدم الدين بكل جرأة وسخرية، بلا رقيب ولا رادع، تحت مظلة (حرية الرأي)، وربما قيل زورًا: (هذا القول لا يعبر إلا عن رأي صاحبه).. أو قيل زورًا وهتانًا: (إن هذا يسمى بالرأي المعاكس)، وقد شرحوا بالكفر صدرًا.

(١) انظر: (دركات حضارية للمنافقين والمنافقات) عبدالله الجوير، موقع ملتقى أهل التفسير.

الوجه الثامن: المنافقون الأولون لا يتعرضون للفتيا أو القول في تفسير الشريعة أو القضايا التي تمس الأمة، لأن هذا ليس من شأنهم فللعلم والإفتاء رجالهما المعروفون، ومرد الأمر إلى أهل الحل والعقد.

أما منافقو زماننا فيفتون ويفسرون ويكتبون، ويغيرون دلائل الآيات والنصوص، ويبدعون، ويكفرون، ويفسّقون وفق أهوائهم وأذواقهم ومشاربهم، وي طرحون للنقاش كثيرًا من الأصول والثوابت، التي تعلم من الدين بالضرورة بحجة التحليل واستطلاع الآراء، وبحجة حرصهم على المجتمع وطبقاته وشرائحه ورثته التي يتنفس بها.. ولكن في النفس غرض وفي القلب مرض. حتى قال أحدهم: (إن الولاء والبراء بدعة) برغم كثرة النصوص المحكمة الدالة على أنه أوثق عرى الإيمان، وأصل من أصول الدين.

الوجه التاسع: المنافقون الأولون منبذون عن تولي الولايات والمسؤوليات إدراكًا لخطرهم، وأنهم لو تولوا أمرًا من أمور الأمة في سياستها أو تعليمها أو علاقتها وأسرارها.. لحصل بذلك فساد عريض، وأصبحت الأمة لقمة سائغة لعدوها في أي ساعة من نهار.

أما منافقو زماننا فقد تسللوا إلى ثغور الأمة، فأوجعوها طعنًا في إعلامها واقتصادها وغير ذلك، وصاروا أصحاب قرار مشؤوم على الأمة، وكلُّ تولى هدم الإسلام من قبله.

الوجه العاشر: من نقل أمراً من أمور المسلمين أو أحوالهم الخاصة أو العامة إلى الأعداء وصف بالنفاق والخيانة بالاتفاق، والمنافقون الأولون لم يعهد أو ينقل أنهم كاتبوا فارس والروم أو الحبشة أو غيرهم بالتحريش أو التآليب على قومهم، إلا بصورة خفية، وعلى حذر من اكتشافهم.

أما منافقو زماننا فقد تفننوا في استعداد الأمم غير المسلمة على المسلمين، وزودهم بما يحتاجون إليه، وتسابقوا إلى ذلك بالتواصل والزيارات والعلاقات والرسائل المتبادلة، وصوروا لهم المجتمع بصورة سيئة، وقاموا بدلالة أولئك على جوانب الضعف فيه، وأرشدوهم إلى الثغرات التي يمكن أن يتسللوا منها إلى الأمة، وأخرجوا حكوماتهم أمام العالم، وهامى تطالعنا صحف الدول غير المسلمة بتقارير ورسومات وتصريحات، يجزم القارئ والمطالع لها أنها خطت وصيغت بأيد محلية ماكرة، وأصبحوا يكتبون ويتخاطبون ويترافعون إلى ما يسمى بجمعية حقوق الإنسان ضد محاكم بلدانهم ولو كانت محاكم شرعية، فكانوا شؤماً على بلدانهم، وإن زعموا أنهم وطنيون، وأنهم حريصون على حب الوطن وتوحيد أطيافه.

لذا لا يستغرب هذا العداء والكره للمسلمين وتجييش الجيوش ضدهم من قبل بعض الدول، وهذا في حقيقة أمره نفاق وتجسس وموالاتة ومظاهرة وعمالة وخيانة ومداهنة.

الوجه الحادي عشر: المنافقون الأولون إذا مات أحدهم ربما تنحى عدد من أهل العلم والفضل عن الصلاة عليه، وصار هذا تعزيرًا وعبرة لمن سلك مثل سلوكه، وانقطع ضرره بموته وهلاكه.

أما منافقو زماننا فإذا مات أحدهم أظهر أصحابه الحزن والأسى على موته، وتتابع كتباتهم لتأبينه والعيول عليه في كل ناد، وأظهروا تاريخه، ولمعوا حياته، فجعلوها بطولية، حتى لربما افتتن بعض القراء من أبناء المسلمين بذلك الهالك، فأسرعوا لاقتناء كتبه وألفت فيه المؤلفات، واقتبس محبوه شيئًا من أقواله وأفكاره في كل مناسبة، وأصبح مكره يزجج الأمة، وسُمه وشره يخرج من بين أطباق قبره.

وبعد وضوح خطورة المنافقين في واقعنا المعاصر، وأنهم أخطب وأخطر من المنافقين الأولين أسوق في الفقرات الآتية ما وقفت عليه في كتاب الله عز وجل وفي سنة نبيه ﷺ من صفات المنافقين، باذلاً الجهد في تنزيلها على منافقي زماننا، ممن يسمون أنفسهم حديثين أو ليبراليين أو علمانيين أو مستنيرين!!!

وقبل ذكر هذه الصفات، أود التنبيه على أن بعض هذه الصفات قد يتلبس بها بعض المسلمين، ولا يكون بذلك منافقًا النفاق الأكبر، بل يقال: إن فيه شعبة أو خصلة من خصال النفاق، لا تخرجه عن الملة، كما أن من هذه الصفات من يوصف المتلبس بها بالنفاق الأكبر

المخرج من الملة، وذلك كما مر بنا في الفصل الأول من تعريف النفاق الأكبر والنفاق الأصغر والفرق بينهما.

كما أود التنبيه على أن الحكم على معين بالنفاق الأكبر لا يكون إلا بعد وجود الشروط وانتفاء الموانع.

أهم صفات المنافقين المذكورة في الكتاب والسنة:

أجمل الإمام ابن القيم رحمه الله أهم صفاتهم في كلام نفيس خبير بالقوم، أنقله هنا بشيء من الاختصار، ثم أذكر بعد ذلك - إن شاء الله تعالى - تفصيلاً لأهم هذه الصفات، وأذيل ذلك كله بإنزال بعض هذه الصفات على منافقي زماننا من خلال كتاباتهم، من كلام مكتوب ومسموع في وسائل الإعلام المختلفة.

يقول ابن القيم رحمه الله في وصفهم:

١. دَرَسَتْ معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودَثَرَتْ معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفَلَّتْ كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحبونها، وكَسَفَتْ شمسُه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها.

٢. لم يقبلوا هدي الله الذي أرسل به رسوله ﷺ، ولم يرفعوا به رأساً، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأساً. خلَعُوا

نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين،
وَشَنُّوا عليها غارات التَّوِيلَاتِ الباطلة؛ فلا يزال يخرج عليها
منهم كمين بعد كمين.

٣. لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل
والكفران؛ فالظواهر ظواهر الأنصار؛ والبواطن قد تحيَّزَت إلى الكفار.
فألستهم ألسنة المسالمين، وقلوبهم قلوب المحاربين. ويقولون:
﴿ءَاْمَنَّا بِاللّٰهِ وَيَاْلَيُّوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ﴾ [البقرة: ٨].

٤. رأس ما لهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختَر، وعندهم
العقل المعيشي أن الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون
﴿يُخٰدِعُوْنَ اللّٰهَ وَالَّذِيْنَ ءَاْمَنُوْا وَمَا يَخْدَعُوْنَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ﴾
[البقرة: ٩].

٥. قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت
القصود السيئة على إرادتهم ونيّاتهم فأفسدتها؛ ففسادهم قد ترامي
إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون: ﴿فِيْ قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ
اللّٰهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ بِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ﴾ [البقرة: ١٠].

٦. لكل منهم وجهان: وجه يلقي به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه
من الملاحدين. وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر
يترجم به عن سره المكنون: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِيْنَ ءَاْمَنُوْا قَالُوْا ءَاْمَنَّا وَإِذَا
خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطٰنِيْهِمْ قَالُوْا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُوْنَ﴾ [البقرة: ١٤].

٧. قد أعرضوا عن الكتاب والسُّنة استهزاءً بأهلها واستحقاراً، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحاً بما عندهم من العلم، الذي لا ينفع الاستكثار منه أشراً واستكباراً. فتراهم أبدأً بالتمسكين بصريح الوحي يستهزئون ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

٨. لهم علامات يُعرفون بها، مبينة في السُّنة والقرآن. بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان. قام بهم - والله - الرياء. وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن؛ فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقیلاً: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

٩. أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تَبْعَرُ إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تستقر مع إحدى الفئتين؛ فهم واقفون بين الجمعين، ينظرون أيهم أقوى وأعز قبلاً ﴿مُذَبَذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

١٠. يتربصون الدوائر بأهل السُّنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم. وإن كان لأعداء الكتاب والسُّنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين؛ فلا تحتاج بعده دليلاً ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ

مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ فَآلَهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿[النساء: ١٤١].

١١. يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه، ويشهد الله على ما
في قلبه من كذبه ومينه؛ فتراه عند الحق نائماً، وفي الباطل واقف
على الأقدام). فخذ وصفهم من قول القدوس السلام ﴿وَمَنْ
النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ
وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

١٢. أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد،
ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاه
بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد
﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

١٣. فهم جنس بعضه يشبه بعضاً. يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه،
وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل
الله ومرضاته أن ينفقوه. كم ذكّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن
ذكره ونسوه؟ وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه؟
فاسمعوا أيها المؤمنون ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِنْ
بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ

أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾
[التوبة: ٦٧].

١٤. إن حاکمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حکم کتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين. فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمداً بعيداً، ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضاً شديداً ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

١٥. فكيف لهم بالفلاح والهدى! بعد ما أصيبوا في عقولهم وأديانهم؟ وأنى لهم التخلص من الضلال والردى! وقد اشتروا الكفر بآيائهم؟ فما أخسر تجارتهم البائرة! وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقاً ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَبَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

١٦. نَشَبَ زُقُومَ الشَّيْبَةِ وَالشُّكُوكَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَا يَجِدُونَ لَهُ مَسِيغًا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

تبَّاهم، ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان. فالقوم في شأن وأتباع الرسول ﷺ في شأن.

لقد أقسم الله جل جلاله في كتابه بنفسه المقدسة قسمًا عظيمًا يعرف مضمونه أولو البصائر. فقلوبهم منه على حذر إجلاّ له وتعظيمًا. فقال تعالى تحذيرًا لأوليائه وتنبهًا على حال هؤلاء وتفهيماً ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

١٧. تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يعترض عليه، لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه؛ فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه. وكذلك أهل الريّة يكذبون، ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون، قد ﴿أُتْخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

١٨. أحسن الناس أجسامًا، وأخلبهم لسانًا، وأطفهم بيانًا، وأخبثهم قلوبًا، وأضعفهم جنانًا؛ فهم كالحشب المسندة التي لا ثمر لها. قد قُلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها، لئلا يطأها السالكون ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَوَلَّيَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

١٩. يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول إلى شَرَق الموتى، فالصبح عند طلوع الشمس، والعصر عند الغروب، وينقرونها نقر الغراب؛

إذ هي صلاة الأبدان، لا صلاة القلوب، ويلتفتون فيها التفات الثعلب، إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب. ولا يشهدون الجماعة؛ بل إن صلى أحدهم ففي البيت أو الدكان.

٢٠. إذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان. هذه معاملتهم للخلق، وتلك معاملتهم للخالق. فخذ وصفهم من أول المطففين، وآخر (والسما والطارق) فلا ينبئك عن أوصافهم مثل خبير ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِشْ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. فما أكثرهم! وهم الأقلون، وما أجبرهم! وهم الأذلون، وما أجهلهم! وهم المتعاملون. وما أغرهم بالله! إذ هم بعظمته جاهلون ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

٢١. إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمهم، وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحص به ذنوبهم، ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم، وهذا يحقق إرثهم وإرث من عداهم، ولا يستوي من موروثه الرسول ﷺ ومن موروثهم المنافقون: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَاذْكُرْهَا لِلَّهِ وَمَا أَكْرَمَهُمْ وَلَا يُدْرِكُ الْيُسْرَىٰ ذِكْرُ الْيُسْرَىٰ ذِكْرُ الْيُسْرَىٰ﴾ [التوبة: ٥٠ - ٥١].

وقال تعالى في شأن السَّلفين المختلفين، والحق لا يندفع بمكابرة أهل الزيغ والتخليط، ﴿إِنْ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢٢. كره الله طاعاتهم خبث قلوبهم وفساد نياتهم، فثبَّطهم عنها وأقعدهم، وأبغض قُرْبهم منه وجواره، ليلهم إلى أعدائه؛ فطردهم عنه وأبعدهم. وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم، وأشقاهم وما أسعدهم. وحكم عليها بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده، إلا أن يكونوا من التائبين. فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

ثم ذكر حكمته في تشييطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم. فقال وهو أحكم الحاكمين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَاؤُضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

٢٣. ثقلت عليهم النصوص فكهروها، وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها، وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها، وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها

قوانين ردوها بها ودفعوها. ولقد هتك الله أستارهم، وكشف أسرارهم وضرب لعباده أمثالهم، وأعلم أنه كلما انقضى منهم طوائف خلفهم أمثالهم؛ فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر. وبينها لهم فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

٢٤. أسروا سرائر النفاق فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم، وفلتات اللسان، ووسمهم لأجلها بسيما لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان، وظنوا أنهم إذا كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد. كيف؟ والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩ - ٣٠].

فكيف إذا جُمعوا ليوم التلاق، وتجلي الله جل جلاله للعباد وقد كُشف عن ساق؟ ودُعوا إلى السجود فلا يستطيعون ﴿خَشَعَتِ أَبْصَارُهُمْ تَرَافُؤَهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ [القلم: ٤٣].

أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم؟ وهو أدق من الشعرة، وأحد من الحسام، وهو دَخَضٌ مَزَلَّةٌ، مُظْلَمٌ لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطئ الأقدام؛ فُقِسِّمَتْ بين الناس الأنوارُ،

وهم على قدر تفاوتها في المرور والذهاب، أعطوا نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام. كما كانوا بينهم في هذه الدار، يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام. فلما توسطوا الجسر عَصَفَتْ على أنوارهم أهوية النفاق؛ فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح؛ فوقفوا حيارى لا يستطيعون المرور؛ فَضُرِبَ بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب. ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح، باطنه - الذي يلي المؤمنين - فيه الرحمة، وما يليهم من قبلهم العذاب والنقمة. ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان، ومشاعل الركب تلوح على بعد كالنجوم. تبدو لناظر الإنسان ﴿أَنْظُرُونَا نَقْنِسَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، لتتمكن في هذا المضيق من العبور؛ فقد طفئت أنوارنا، ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]، حيث قسمت الأنوار. فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار! كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق؟ فهل يلوي اليوم أحد على أحد في الطريق؟ وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق؟ فذكر وهم باجتماعهم معهم وصحبته لهم في هذه الدار، كما يذكر الغريب صاحب الوطن بصحبته له في الأسفار ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤]، نصوم كما تصومون، ونصلي كما تصلون، ونقرأ كما تقرأون، ونتصدق كما تصدقون. ونحج كما تحجون؟ فما الذي فرق بيننا اليوم، حتى

انفردتم دوننا بالمرور؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الحديد: ١٤]، ولكنكم كانت
ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل ملحد، وكل ظلوم كفور:
﴿وَلَكِنَّكُمْ فَنَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ١٤ ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
مَأْوَانُكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ وَيَشْرُ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٤ - ١٥].

لا تستطل أوصاف القوم؛ فالمتروك - والله - أكثر من المذكور.
كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض
وفي أجواف القبور. فلا خَلَّتْ بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش
المؤمنون في الطرقات، وتتعطل بهم أسباب المعاش، وتخطفهم
الوحوش والسباع في الفلوات. سمع حذيفة رضي الله عنه رجلاً يقول:
اللهم أهلك المنافقين. فقال: «يا ابن أخي، لو هلك المنافقون
لاستوحشتهم في طرقاتكم من قلة السالك»^(١).

تالله لقد قَطَّعَ خوف النفاق قلوب السابقين الأولين، لعلمهم
بدقّه وجله وتفصيله وجمله.

٢٥. زَرَعَ النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء.
ومخرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف
العزيمة. فإذا تمت هذه الأركان الأربع: استحکم نبات

(١) وينسب هذا القول للحسن البصري رحمه الله. ولعل المقصود بالمنافقين هنا المتصفين
بنوعى النفاق الأكبر أو الأصغر.

النفاق وبنياه؛ ولكنه بمدارج السيول على شفا جُرْفٍ هارٍ؛
فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تُبلى السرائر، وكُشف المستور،
وبعث ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور تبين حينئذ لمن كانت
بضاعته النفاق أن حواصله التي حصلها كانت كالسراب
﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ
فَوَقَّعَتْهُ حِسَابُهُ ۖ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

٢٦. قلوبهم عن الخيرات لاهية، وأجسادهم إليها ساعية، والفاحشة
في فجاجهم فاشية. وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه
قاسية. وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار
قلوبهم، وكانت آذانهم واعية.

فهذه -والله- أمارات النفاق. فاحذرهما أيها الرجل قبل أن تنزل
بك القاضية. إذا عاهدوا لم يفوا، وإن وعدوا أخلفوا، وإن قالوا
لم ينصفوا، وإن دُعوا إلى الطاعة وقفوا، وإذا قيل لهم تعالوا
إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدّفوا، وإذا دعتهم أهواؤهم
إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا. فذرهم وما اختاروا
لأنفسهم من الهوان، والخزي والخسران. فلا تثق بعهودهم ولا
تطمئن إلى وعودهم؛ فإنهم فيها كاذبون، وهم لما سواها مخالفون
﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ
مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَيْنَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ

مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿[التوبة: ٧٥ - ٧٧]﴾^(١).

ويضم إلى ما ذكره ابن القيم رحمته الله في وصف المنافقين الصفات التالية:

٢٧. قلة ذكرهم لله ﷻ وتكاسلهم عن الصلاة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿[النساء: ١٤٢]﴾، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمته الله وهو يعدد فوائد الذكر:

(إن كثرة ذكر الله ﷻ أمان من النفاق، فإن المنافقين قليلو الذكر لله ﷻ، قال الله ﷻ في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿[النساء: ١٤٢]﴾، وقال كعب: من أكثر ذكر الله ﷻ برئ من النفاق. ولهذا - والله أعلم - ختم الله تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿[المنافقون: ٩]﴾، فإن في ذلك تحذيرًا من فتنة المنافقين، الذين غفلوا عن ذكر الله ﷻ، فوقعوا في النفاق، وسئل بعض الصحابة رضي الله عنهم عن الخوارج: منافقون هم؟ قال: لا، المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلًا. فهذا من علامة

(١) مدارج السالكين ١/ ٦٠٩-٦٢٦، ط. دار طيبة. (باختصار).

النفاق قلة ذكر الله ﷻ، وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله ﷻ أكرم من أن يتلى قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله ﷻ^(١).

٢٨. الاستهزاء بآيات الله ﷻ والجلوس مع المستهزئين بها، قال الله ﷻ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

٢٩. الإفساد في الأرض وتسميتهم ذلك إصلاحاً، قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

٣٠. التستر بالدين وبيع بعض الأعمال المشروعة للإضرار بالمؤمنين والتفريق بينهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

وسياتي في الفصل القادم - إن شاء الله - حديث مفصل عن مساجد الضرار وخطرها.

٣١. رمي المصلحين بالفساد والإفساد والسفه. وهي سنة فرعونية قالها فرعون لموسى عليه السلام، حيث وصف نفسه بقوله:

(١) الوابل الصيب ص ١١٠.

﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وقال عن موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. وها هم المنافقون يقول الله ﷻ عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

٣٢. مُرْجِفُونَ: فليس لهم من هم عند المحن والشدائد إلا الإرجاف، والتخويف، وتثييط العزائم، وإرهاق الهمم.. إنهم السوس الذي ينخر في صفوف المؤمنين، محاولين تحقيق ما لم يستطع العدو تحقيقه في الأمة، فيشقون الصفوف، ويشيرون الفتنة، ويحاولون زعزعة أي تماسك للمؤمنين: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

٣٣. يتولون الكافرين ويتنكرون للمؤمنين: زاعمين أن العزة عند الكافرين، فيسعون لها عندهم، لكنهم لن يجدوها إلا عند الله العزيز الجبار: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

فهم أسرع الناس توافقاً مع اليهود والنصارى في شدائد الأمة، قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

٣٤. البذاء والبيان: عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الحياء والعِيّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق»^(١). قال الترمذي: «والعِيّ قلة الكلام، والبذاء هو الفحش في الكلام، والبيان هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيوسّعون في الكلام، ويتفصّحون فيه، من مدح الناس فيما لا يُرضي الله ﷻ». فمن علامات النفاق سلاطة اللسان على المسلم، قال تعالى: ﴿سَلَفُوكُمْ بِاللِّسَانِ حَدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، يقابل ذلك لين الخطاب للكافر والفاسق.

٣٥. يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

كما أن في قلوبهم مرض الشهوة، قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

٣٦. النكول عن الجهاد وتسميته بالفتنة: قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتُذَنِّ لِي وَلَا تُفْتَنِيْ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

قال ابن كثير: يقول الله تعالى: «ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿أُتُذَنِّ لِي﴾ [التوبة: ٤٩]، في القعود ﴿وَلَا تُفْتَنِيْ﴾ [التوبة: ٤٩]،

(١) سبق تحريجه.

بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم، قال الله تعالى:
﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]، أي: قد سقطوا في الفتنة
بقولهم هذا^(١). وقد قال الرسول ﷺ: «من لم يغز ولم يحدث
نفسه بالغزو مات على شعبة من شعب النفاق»^(٢).

٣٧. لا ينفعهم القرآن بل يزيدهم رجساً إلى رجسهم: قال الله تعالى:
﴿وَإِذَا مَا أَنزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا
فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [١٢٤] وَأَمَّا الَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ
كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

٣٨. مظاهرة الكافرين ومعاونتهم على المؤمنين: وهذه من أخص
صفات المنافقين، فهم في الظاهر مع المؤمنين، لكنهم في الحقيقة
مع الكفار: عيوناً وأعواناً لهم، يكشفون لهم عورات المسلمين
وأسرارهم، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر.

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا
دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي
أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢].

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٦١.

(٢) سبق تخريجه.

قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية بعدما ذكر الخلاف في المعني بهذه الآية: (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيثار بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً وحليفاً وولياً من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين)^(١). ومن علامة ذلك ظهور رحمة المنافقين في قضايا الكفار ومصائبهم والفتور وعدم الاكتراث عن قضايا المسلمين.

٣٩. الرضا بأسافل المواضع خوفاً وجبنًا. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعِذْكَ أُولَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْهُمْ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْهُمْ أَفْئِدَةً حَاسِرَةً إِذْ يَقُولُ عَصَى اللَّهُ فَإِنَّهُمْ يُبْغِضُونَ اللَّهَ بِمَا بَغِضُوا اللَّهَ وَلَئِنْ جَاءَتْهُمُ نَصْرَةٌ مِنْ اللَّهِ سَئِلُوهَا فَإِنَّهُمْ ضَالِّينَ﴾ [التوبة: ٨٦].

قال ابن كثير: «يقول تعالى منكرًا وذاماً للمتخلفين عن الجهاد الناكِلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦]، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقُولُونَ لِلَّهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نَدِيعُ الْغَافِقِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

(١) تفسير الطبري ٣٩٨/١٠ ت أحمد شاكر.

(٢) تفسير ابن كثير ١٩٦/٤ ط. دار طيبة.

٤٠. يحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا. قال الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رجلاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلّفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبوا أن يحمّدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨] ^(١).

٤١. يعيّنون العمل الصالح ويرضون ويسخطون لحظوظ أنفسهم: قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

قال ابن كثير: (يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾، أي: ومن المنافقين ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾، أي: يعيب عليك ﴿فِي﴾، قسم ﴿الصَّدَقَاتِ﴾، إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم) ^(٢).

(١) البخاري (٤٥٦٧) مسلم (٢٧٧٧).

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٦٤ ط. دار طيبة.

٤٢. بخلهم وقبض أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله ﷻ. قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقال عنهم: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفَقَتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، ويضمون إلى هذا البخل تضيقهم على المؤمنين في أرزاقهم، وينفرون الناس عن الإنفاق عليهم قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَن عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: ٧].

يقول سيد قطب رحمه الله عن هذه الصفة الدنيئة: (وهي قوله يتجلى فيها خبث الطبع، ولؤم النحيزة. وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان. ذلك أنهم لحسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة، كما هي في حسهم، فيحاربون بها المؤمنون، إنها خطة قريش، وهي تقاطع بني هاشم في الشعب، لينفضوا عن نصره رسول الله ﷺ، ويسلموه للمشركين! وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية ينفض أصحاب رسول الله ﷺ عنه تحت وطأة الضيق والجوع!

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين، ليموتوا جوعاً، أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة!

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق.

وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان، من قديم الزمان، إلى هذا الزمان... ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧] ... ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم. فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين! وهكذا يثبت الله المؤمنين ويقوي قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة والوسيلة الخسيسة، التي يلجأ أعداء الله إليها في حربهم^(١).

٤٣. اشمئزاهم وكرهيتهم بالاحتجاج بالقرآن قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا نُنَادِيكَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِنَنَتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا﴾ [الحج: ٧٢]، ويقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

(١) في ظلال القرآن، الآية (٧) من سورة المنافقين.

٤٤. الاهتمام بالمظاهر وإهمال المخابر والسرائر، قال الله تعالى عنهم:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

٤٥. من خصال المنافقين مسايرة الناس وإرضائهم ولو سخط الله ﷻ،

قال تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ

أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

٤٦. المنافقون أشد الناس خوفاً من النقد، لأنهم يبتغون ما لا

يظهرون فيخشوا انكشافه، قال الله ﷻ عنهم: ﴿يَحْذَرُ

الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾

[التوبة: ٦٤]، وقال ﷺ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

هَلْ يَرَيْنَا مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ

لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقال ﷺ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صِدْقَةٍ عَلَيْهِمْ﴾

[المنافقون: ٤] ^(١).

٤٧. ذنوب الخلوات كثيرة عند المنافقين، لأنهم كما وصفهم الله ﷻ:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ

مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ ^(٢) [النساء: ١٠٨].

(١) انظر: تغريدات الشيخ عبدالعزيز الطريفي.

(٢) انظر: تغريدات الشيخ عبدالعزيز الطريفي.

٤٨. يختلف المنافقون والمنافقات على دنياهم، ولكنهم يجتمعون على كره الحسبة وأهلها، وذكر النساء المنافقات مع الذكور في حرب وكره أهل الحسبة، لأن الشهوات واحدة ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾^(١) [التوبة: ٦٧].

٤٩. من صفات المنافقين في القرآن حرب الحق بواسطة حرب أهله ورموزه، لأن لكل فكر حاملاً، فإذا سقط الحامل سقط المحمول^(٢).

٥٠. المنافق يمدح من أعطاه ولو كان على باطل، ويذم من منعه ولو كان على حق، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾^(٣) [التوبة: ٥٨].

٥١. الصحابة رضي الله عنهم يرون أن من صفات المنافقين المجادلة عن المنافقين، ومن علامات النفاق بغض الصحابة رضي الله عنهم، كما جاء في الحديث الصحيح: «آية الإيثار حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار».

٥٢. سوء الظن بالله ﷻ، وتسخطهم لأقدار الله ﷻ. يقول الله ﷻ عنهم يوم أحد: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ

(١) انظر: تغريدات الشيخ عبدالعزيز الطريفي.

(٢) انظر: المصدر نفسه.

(٣) انظر: المصدر نفسه.

الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴿١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال عنهم ﷺ: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَرَئًا السَّوَاءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

٥٣. مصابون في قلوبهم بأمراض الشبهات والشهوات. في قلوبهم زيغ يتبعون المتشابه، ويعرضون عن المحكم.

قال الله ﷻ: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣].

إنزال بعض صفات المنافقين الأولين المذكورة في الكتاب والسنة على منافقي زماننا:

تشابهت قلوب المنافقين الأولين والمعاصرين، وتشابهت صفاتهم، ولا غرابة في ذلك، فأصولهم ومعينهم واحد، ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]، فهم يجمعهم الطغيان والاستكبار والكذب والخداع والإفساد ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، مع أن منافقي زماننا قد فاقوا أسلافهم بصفات أخرى ذميمة، سبق ذكرها في أول الفصل، كما أنهم فاقوهم في الوسائل الماكرة التي ينشرون بها خداعهم وإفسادهم، لم تكن موجودة في أسلافهم من المنافقين الأولين، فجاء النفاق المعاصر أشد وأغلظ من النفاق الغابر، والصفات المشتركة كثيرة لا يتسع لها المقام، ولكنني سأكتفي هنا بذكر أهم الصفات الرئيسة، التي شابه فيها المنافقون المعاصرون سلفهم من المنافقين الأولين، لتدل على ما سواها من الصفات التي دونها.

وأود هنا التأكيد على أن من وجدناه يتصف بهذه الصفات، فإن ذلك لا يعني الحكم عليه بعينه بالنفاق الأكبر المخرج من الملة، بل لا بد من توافر شروط الحكم وانتفاء موانعه في المعين، إذ قد يكون بعضهم جاهلاً أو متأولاً.

ومن أهم هذه الصفات المشتركة ما يلي:

• الصفة الأولى والثانية:

١. صفة الخداع والكذب.

٢. صفة التذبذب وسياسة ذي الوجهين.

وصف الله ﷺ المنافقين بهذا الوصف في كتابه الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَذْبُذِبِينَ﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣]، وقال عنهم الرسول ﷺ: «مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة»^(١). ووصفهم الرسول ﷺ بقوله: «... وتجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»^(٢).

وإذا تأملنا هذه الصفات وجدناها تنطبق أشد الانطباق على منافقي زماننا اليوم، الذين ظهر كذبهم وخداعهم وتذبذبهم، فصرنا نرى منهم الوجوه والمعايير والمواقف المختلفة والمتناقضة، يدعون شيئاً ويناقضونه بأفعالهم، ومواقفهم ليس لهم أصل ولا ضوابط

(١) مسلم (٢٧٨٣).

(٢) البخاري (٣٤٩٤)، مسلم (٢٥٢٦).

ينطلقون منها، وإنما كما قال الرسول ﷺ في حديث الفتن «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيا قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، وأيا قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، حتى تكون القلوب على قلبين: قلب أبيض كالصفاء لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، وقلب أسود مريباد كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه»^(١). فالمحرك لهم هو الهوى. ومن كان هذا شأنه أتى بالغرائب والعجائب المرة والمواقف المتضادة والمعايير المتناقضة. فنجد في قضية واحدة يتعامل معها بوجه، وإذا كان هواه لا يتناسب مع هذا الوجه تعامل معها بوجه آخر مضاد، مع أن القضية واحدة. وهذا نجده واضحًا في نفاق الليبراليين اليوم، وذلك من خلال مقالاتهم وكتبهم ومواقفهم.

وحتى لا ننتهم بالتجني على القوم أسوق الأمثلة الآتية، التي تدل على تذبذبهم وخداعهم واتباعهم لسياسة ذي الوجهين، الذي قد أشرب هواه. مقتبسًا بعض هذه الأمثلة وبتصرف من مقالة بعنوان: (الليبرالية السعودية والتأسيس المأزوم) لسلطان العميري.

١. يدعو دعاة الليبرالية -نظريًا- إلى الحرية الفكرية والحرية الفردية، ويطالبون بفتح الباب لحرية الرأي، ولكنهم في الممارسة

(١) مسلم (١٤٤).

الواقعية تتهاوى هذه المطالبات في أول محطة من المواجهة، حيث نجدهم يمارسون أبشع أنواع الإقصاء والإرهاب الفكري إزاء من يتهمونهم بهذه التهمة، ولا سيما إذا تسلموا موقعًا سلطويًا. فكم منعت من أصوات من جراء الحرب الضارية التي يقيمها التيار النفاقي الليبرالي على الحرية الفكرية، ولا أدل على ذلك مما يمارسه القوم من إرهاب فكري ومصادرة لحرية الرأي تجاه بعض أهل العلم، حينما يبدوون رأيهم في المرأة وعملها وحجابها، أو ما يقوم به رجال الحسبة من إنكار للمنكرات ومحاربة للفساد والرديلة. فحرية الرأي عندهم حلال لهم حرام على غيرهم. والمرأة إذا اختارت الحجاب لا يعدّون ذلك ممارسة لحريتها الشخصية، ولا يحترمون أصلهم في الحرية، بل يوجهون أقلامهم في السخرية بها والعدوان عليها، ولم يخرج «الليبراليون المنافقون» عن هذه الحقيقة، فهم يتحولون إلى مستبد ثقافي عندما تأتي تطبيقات حرية الفكر والرأي، فحرية الفكر هذه تُسلب عندهم عن التعليم الشرعي، فلا بد من محاصرته وتبديله، والدولة مطلوب منها التدخل لتغييره أو إلغائه، بل إن مشاركة الأجنبي في هذا الطغيان على حرية الفكر أمر يدعو إليه، ومرغوب فيه أيضًا. وها هو العفيف الأخضر ينقلب على حرية الفكر، ويطالب بإغلاق جامعة بأكملها هي جامعة الزيتونة في تونس^(١).

(١) حوار مع العفيف الأخضر في موقع (الحوار المتمدن) ٢٨/٨/٢٠٠٣.

وأيضاً حرية الرأي عندما تكون لبعض الإسلاميين، فإنها خطر يهدد البلد، ولا بد من إلغائه، والقضاء مطلوب منه محاكمتهم، وفي ذلك يقول العفيف الأخضر بعد تسجيل اعتراضه على طريقة محاكمة الرئيس التونسي ابن علي، مرشحاً الحركة الإسلامية في تونس للمحاكمة بدلاً عنه، فيقول: «هؤلاء الفاسدون الحقيقيون هم الذين يحق للقضاء أن يوقفهم في قفص الاتهام»^(١)، وفي تجسيد لحالة الاستبداد الفكري عندهم والانقلاب على أصلهم في الحرية يشرع العفيف الأخضر في موطن آخر نوعاً من قمع الإسلاميين، فيقول: «أما القمع فلا يجدي إلا على المدى القصير، وشرط أن يكون إجراءً ظرفياً»^(٢).

وكذلك حرية الفكر عندما تأتي برسائل جامعية ترفض نفاق الليبرالية والحداثة، فإنها رسائل إرهابية مرفوضة^(٣)، والباحث هنا يعد جزاراً ثقافياً، والجامعة مسلخ ذاك الجزار يسلخ ويذبح فيه كل حدائي وليبرالي، وكل خطاب يرفض المفاهيم الليبرالية هو بؤس فكري، والمطبوعات التي تنقض وترد الليبرالية ومفاهيمها لا بد أن تمارس عليها الرقابة، ويمنع هذا الغشاء من الطبع والنشر، والحكومات المستبدة مدعوة لحصاره.

(١) مقال بعنوان (رسالة إلى القضاة) للعفيف الأخضر موقع الحوار المتمدن ٢٠١١/٨/١٨.

(٢) حوار مع العفيف الأخضر (موقع الحوار المتمدن).

(٣) الحداثة والليبرالية معاً على الطريق، شاعر النابلسي ص ١١٣.

وعندما يسجل بعض العلماء موقفهم من العدوان على الأمة، فإن «المنافقين الجدد» يسارعون إلى إصدار بيانهم الشهير الموجه إلى مجلس الأمن والأمم المتحدة بعنوان: (البيان الأُمِّي ضد الإرهاب)، يطالبون فيه بإقامة محاكم دولية، يعاقب فيها أولئك العلماء؛ لأنهم عبروا عن رأيهم بحرية تجاه طغيان يمارس على الأمة^(١).

إذا حرية الفكر والرأي في تصورهم هي نقد الإسلام وأصوله، وحق يمارسه الجميع، وهي ساحة للإبداع متاحة لكل متهوك وضال، أما نقد الليبرالية فهو إرهاب يطلب من الغرب محاربتة، والأنظمة الظالمة مدعوة لقمعه ومحاصرته، وعليه فالحرية نادٍ خاص بالليبراليين.

٢. يدعو التيار النفاقي الليبرالي في كل محفل وعند اقتراب معارض الكتاب إلى ضرورة الانفتاح المعرفي والمجتمعي على العالم، والسماح بنشر كل مؤلف من غير تضيق عليه أو تحريض، ويسعى إلى إلغاء الرقابة المشددة على المنتجات الورقية وغيرها.. ولكننا نفاجأ بأنه في بعض خطاباته يتبنى الدعوة إلى الرقابة المشددة على منتوجات التوجه الديني من الكتب والمجلات والأشرطة والمواقع والقنوات والبرامج، ويدعو، ولو بطرف خفي إلى التضيق عليها وتكثيف الرقابة والمراقبة.

(١) نشر البيان في صحيفة إيلاف الإلكترونية إعداد العفيف الأخضر.

٣. يلاحظ المراقب أن التيار النفاقي الليبرالي جعل من أبجدياته اليومية الدعوة إلى محاربة التطرف والتشدد والإرهاب، وكرر على أسماع الناس أن هذه المحاربة هي التي تؤدي إلى الاعتدال والاستقرار.. ولكننا نجد تناقض في مواقفه من التطرف والإرهاب، حيث يغض الطرف عن تطرف آخر بلغ من الشطط والشذوذ مبلغاً كبيراً، والغريب أن هذا التطرف ظهر للناس، وهو يحمل اسم الليبرالية، فقد مورست شناعات دينية تحت ظل هذا الاسم، فظهر للعيان الاستهزاء بالنبي ﷺ والتشكيك في القرآن تحت مظلة «الشبكة الليبرالية السعودية». كما نجد هذا التناقض في مواقفهم مما يقوم به الرافضة الشيعية في المنطقة الشرقية أو في منطقة نجران من إرهاب ومواجهات دامية مع رجال الأمن وإحراق لمقرات حكومية، حيث يلتزمون الصمت إزاء هذه المواجهات، وكأن شيئاً لم يكن، فلماذا لا يكون موقفهم واحداً من جميع الأطراف.

٤. لا يكاد يهدأ أكثر التيار النفاقي الليبرالي من توجيه الذم إلى المجتمع ووصفه بأنه متخلف لم يعرف التطور ولم يذق طعم التقدم، ولم يعيش الارتقاء، وأنه ما زال يعيش في عصر التقييدات المكانية والزمانية، وأنه لم يخرج عن البداوة والقبيلة.. ثم نجد ذلك الذم يقف عند دائرة المجتمع فقط، ولا يصل إلى السلطة الحاكمة، بل يصل في بعض المظاهر إلى الإطراء المبالغ فيه من شأن السلطة والإعلاء من رقيها وتقدمها، مع أن السلطة جزء من المجتمع.

٥. يشن عدد من التيار النفاقي الليبرالي حملة لا هوادة فيها على التصنيف الفكري للمجتمع، ويعلن الإنكار القاطع لتقسيم المجتمع إلى تيارات معرفية متدافعة، ويصور ذلك على أنه أحد النواقض الكبرى لمفهوم الوطن الواحد، ويدعون حرصهم على لحمة الوطن، ولكن المراقب للمنتج الليبرالي يجد حضوراً مكثفاً للتصنيف والتقسيم، فهو من أكثر التيارات التي تقسم المجتمع إلى متشدد ومعتدل ومتطور ومتحجر ومتفتح ومنغلق وعقل أحادي وعقل تعددي، وغيرها من التصنيفات التي لا يكاد تخلو منها الصحافة الليبرالية.

٦. يدَّعي دُعاةُ النفاق الليبراليون أنهم هم الحريصون على مصلحة الوطن وحل مشكلاته، ثم إذا بهم يختزلون قضايا الوطن ومشكلاته في مشروعهـم الأنثوي عن المرأة ومواجهة ظاهرة التدين في المجتمع ويدندنون على ذلك بشكل ممجوج يصل إلى درجة الإملال، فتراهم يبدؤون بالمرأة وينتهون بها، مستخدمين في ذلك أساليب السخرية والإقصاء والفجور في الخصومة مع مخالفينهم، وكأن ليس هناك في المجتمع قضايا أخرى تنخر وتفسد المجتمع كقضايا الاستبداد والبطالة والفساد الأخلاقي والمالي والإداري، حيث تجذ السكوت المطبق عند القوم عن هذه القضايا وأمثالها، فأين التشدق بالحرص على مصلحة الوطن ومحاربة الفساد، والجواب يكمن في العقلية الليبرالية القائمة على المعايير المزدوجة والانتقائية والهوى والتناقض، فالحمد لله الذي عافانا من هذا البلاء.

٧. تدخلهم في بعض القضايا الخارجية، ولا سيما بعد الثورات العربية وسقوط رموز الظلم في هذه الثورات، حيث نجدهم يشنون حملة شعواء على التوجه الإسلامي في هذه الثورات وعلى رموزها، حتى لو اختار الناس الحكم بالشرعية، فإن شعار الحرية الذي ينادي به الليبراليون يختفي حينئذ، بل يحل محله ما يضاده من مصادرة الحريات والوقوف أمام اختيار الشعوب للإسلام، ومن ذلك هجومهم على ممارسة السياسة، كل هذا يسلب الفرد حريته.

ولم يكتف القوم بمصادرتهم لحريات الناس واختيار الشعوب للإسلام بل تحالف المنافقون الجدد مع الأنظمة الاستبدادية، وهذا انقلاب آخر على ما يدعون إليه من الحرية ونبذ الاستبداد وفي ذلك يكتب العفيف الأخضر مقالاً بعنوان: «كونوا حزب الملك لإنقاذ المغرب» وجه فيه رسالة للنخب المغربية يطالبها بالتحالف مع الملك المغربي لمواجهة الإسلاميين هناك، وعندما تفرض المشروعات الليبرالية على الناس بقوة السياسة، فهو أمر ناجح ومطلوب عندهم. يصف شاكِر النابلسي طريقة (أبورية) الاستبدادية في التغيير، بقوله: «الإستراتيجية الليبرالية البورقبيية الناجحة»^(١)، وتحت عنوان: «أهمية الليبرالية البورقبيية»، يقول النابلسي: «إن استلهام الليبراليات

(١) العرب بين الليبرالية والأصولية والدينية. شاكِر النابلسي ص ٦١.

العربية لإستراتيجية الليبرالية البورقبيية هو خير حل لأزمة استلهم الليبراليات العربية»^(١).

وعندما أراد الشعب التونسي محاكمة ابن علي وحكومته بجديّة أكثر، وجه العفيف الأخضر رسالة للقضاء، قائلاً: «ليكن شعاركم الشارع ينبح»^(٢)، ويرفض العفيف الأخضر حل الحزب التونسي الحاكم في السابق، ويعدّ منع الآلاف من أعضائه الترشح للرئاسة قراراً تعسفياً^(٣)، ويوافق على ذلك شاكر النابلسي الذي اعترض على حل الحزب الحاكم في مصر.

٨. يدعون أنهم لحمّة من المجتمع يعيشون همّ مجتمعاتهم وأمتهم مع أنهم في حقيقة الأمر معزولون عن أمتهم وهمومها، قد عزلوا أنفسهم عن قضايا الأمة العربية والإسلامية، فلا حس لهم ولا كلمة عما يجري في سوريا وفي غزة وفي اليمن وفي العراق، وكأنهم يعيشون في كوكب آخر، بل تراهم يسخرون من المجاهدين الذين يقاومون الغزاة المحتلين، وظهرت عزلتهم عن أمتهم في مواقفهم الباردة الباهتة مما يمارسه أعداء الدين من النيل من رسول الإسلام محمد ﷺ أو من النيل من القرآن الكريم، فأين هم من ذلك؟

(١) المصدر السابق ص ٥٦.

(٢) (رسالة القضاء) العفيف الأخضر (موقع الحوار المتمدن).

(٣) رسالة إلى منديلا (موقع الحوار المتمدن).

٩. ينادي الليبراليون بالحوار الحضاري، وعدم إقصاء المخالف، ثم ينقلبون عليه بممارساتهم وكتاباتهم السوقية، حيث نرى التعالي على القراء واحتقارهم.

إن التعالي على القراء والنرجسية التي تصاحب عرضهم لأرائهم هي صفة ظاهرة في خطاب «الليبراليين الجدد»، واحتقار كل فكرة لا ترجع إلى مبادئهم، وتسفيه مخالفاتهم هي طريقة عندهم، ويتميز شاكر النابلسي عن بقيتهم في ذلك^(١).

ويظهر الانحطاط الأخلاقي في الآتي: عنوان في كتاب «أيتها الجماهير الحمقاء»^(٢)، ويصف شاكر النابلسي المجتمعات العربية بقوله: «الشارع العربي الأحمق»^(٣)، ويقول أيضاً: «إن وظيفة المثقف الليبرالي، الدفاع عن الحقيقة ضد الغوغاء»^(٤)، ويصف النابلسي الإسلاميين بأنهم «خفافيش الكهوف وبقايا عظام القبور»^(٥)، ويقول عن مشاركة بعضهم الإعلامية: «خرجت الغربان من أوكارها»^(٦)، ويصف بعض منتقديه «قراء غوغاء وأغبياء،

(١) مقال (ليست كل الزهور تتفتح) شاكر النابلسي (موقع الحوار المتمدن).

(٢) (سجون بلا قضبان) ص ١٤١.

(٣) (سجون بلا قضبان) ص ١٤١.

(٤) (العرب بين الليبرالية والأصولية) ص ٦٥.

(٥) المصدر السابق ص ٥.

(٦) المصدر نفسه ص ١١.

ويصف الإخوان بأنهم (يحاورون حيناً حوار الثعابين، ويتمسكون أحياناً تمسكن الشياطين)^(١).

• الصفة الثالثة والرابعة والخامسة:

٣. صفة السخرية بالدين وأهله.

٤. صفة اللدد والفجور في الخصومة.

٥. صفة فصل الحياة عن الشريعة.

قال الله ﷻ عن المنافقين الأولين ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَءَايِنِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥].

وقال ﷻ: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩]، وذكر الرسول ﷺ من صفاتهم: «إذا خاصم فجر»، وقال عن صدودهم عن التحاكم إلى شرع الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١].

(١) المصدر نفسه ص ٢٠.

وها هم منافقو زماننا ينالون من رموز الأمة وعلمائها ويتطاولون عليهم في صحفهم ومواقعهم بالسخرية والتنقص والتهم الكاذبة واللد في الخصومة، فها هو أحدهم يتطاول على أحد هيئة كبار العلماء بأنه (يعد نفسه من العلماء) و(محسوب على هيئة كبار العلماء)^(١).

وقد كتب أحدهم مقالاً دعا فيه إلى أن تكون الدولة بعيدة عن الدين، لا تقبل تدخلات علماء الشريعة الذين وصفهم بالمتشددين^(٢). وآخر يطالب بأن يكون الواقع في السعودية بعيداً عن أي ثوابت دينية^(٣).

وها هي إحداهن تقول: (وإذا كنا سنعود في أمور الحياة المعتادة إلى هيئة كبار العلماء فماذا أبقينا للوزراء والمسؤولين، أوليس هذا هو الكهنوت بعينه؟ بل إنه ولاية الفقيه، التي تسيطر على جميع مفاصل الحياة، ولا يستطيع من يخضعون لها أن يفعلوا شيئاً يمس حياتهم بلا فتوى منه)^(٤).

وهذا مقال لأحدهم يسخر فيه بالشريعة، ويرى أنها لا تصلح لزماننا، حيث يقول:

-
- (١) انظر جريدة الجزيرة عدد (١٢٣٨٦) بعنوان (ما مغزى تهديدات وترويعات الفوزان).
 (٢) انظر المقال في جريدة الوطن العدد (٢٠٥٨) تاريخ ٢١/٤/١٤٢٧.
 (٣) مقابلة مع تركي الحمد في برنامج إضاءات تاريخ ٢٥/٦/١٤٢٩.
 (٤) انظر المقال في جريدة الرياض العدد (١٦٧٣٦) تاريخ ٢٠/٤/٢٠١٤.

في الماضي وقبل الدخول في عصر الحداثة، كان المجتمع يعيش تبعاً للظروف الطبيعية من جهة، وتبعاً للعادات والتقاليد من جهة أخرى، لذا كانت الأحكام الفقهية في تلك الظروف تلعب دوراً مهماً في حياة المجتمع، وذلك من خلال حفظ النظام الاجتماعي ورفع النزعات بين الناس.

وكان الناس في ذاك الوقت يعيشون حياتهم اليومية بشكل طبيعي، مقترنة بأحكام الحلال والحرام الفقهية، وبالتالي فإنهم يعتقدون بأن سلوكياتهم خاضعة لتعاليم الشريعة الإسلامية، فقد كان نمط الحياة والمعيشة بسيطاً، والفقهاء ورجال الدين قادرين على التعامل مع هذا النمط من الحياة، فكان الخطاب الديني منسجماً ومتفاعلاً مع المجتمع آنذاك.

وفي العصر الحديث، استقبل الناس حياة جديدة تختلف كلياً عن نمط الحياة السابقة، اقترنت بمفاهيم جديدة مثل «التقدم والحضارة» و«التنمية»، التي وقف أمامها الخطاب الديني جامداً باعتماده على الأحكام الفقهية القديمة.

هذا الموقف لم يكن قاصراً على الجمود وحسب، بل امتد إلى مقاومة التغيير والتطوير في المجتمع، وبالتالي تعطيل أهداف التنمية

تحت غطاء أحكام الحلال والحرام في الدين كستار، لتغطية العجز في التعامل مع متطلبات ومتغيرات العصر الحديث^(١).

وما أشبه كلام هذا المفتون بكلام أستاذه النابلسي حين قال عن عصرنا بأنه (العصر الذي بدأت فيه القوانين الوضعية الاجتماعية والاقتصادية الإنسانية تأخذ مكان الكثير من القوانين والأنظمة الدينية، التي لم تعد تتماشى ونظام الحياة الإنسانية في هذا العصر)^(٢).

وقد سبق نقل كلام أبي الليبرالية الجديدة النابلسي، وهو يفقد صوابه، فيلج في الخصومة ويفجر فيها بكل لد وحق، حيث سبق ذكر سخريته بالإسلاميين، ووصفهم بأنهم (خفافيش الكهوف) و(بقايا عظام القبور)، ويصف مشاركتهم الإعلامية بقوله: (خرجت الغربان من أوكارها)، ومن لددهم وفجورهم في الخصومة ما كتبه أحدهم تحت عنوان (صراخ في الظلام)، يسخر فيه من المحتسبين في تحذيرهم من ابتعاث المراهقين والمراهقات إلى بلاد الغرب، وإنكارهم على ممارسة الرياضة في مدارس البنات، فيقول: (يتلخص موضوعي اليوم في الظلاميين الذين يصرخون على كل خطوة نخطوها إلى الأمام، ولا سيما إذا كانت المرأة طرفاً فيها.. إلى أن قال: هكذا هي المرأة، عليها أن تكون تابعة في صغرها وفي كبرها.

(١) انظر جريدة الوطن عدد (٤٩٤١) عنوان المقال (الخطاب الديني وتعطيل التنمية).

(٢) الإسلام وجواب الحاوي ص ١٣٨.

أما شريكة فهذا غير جائز، فهي ناقصة عقل ودين، وخلقت من ضلع أعوج، وهي ما أن يترك لها المجال إلا وتنحرف وترتكب الموبقات. هل جاء الإسلام بمثل ذلك؟ هل يمكن لعقل أن يتقبل مثل هذا التفكير الوضع، الذي يختزل المرأة ويجعلها جارية وخادمة مطيعة؟ صراخ الظالمين مع كل خطوة تخطوها المرأة في مجتمعنا يؤكد: إما أنهم لا يحسنون التربية، لذلك هم يشكون في كل حراك نسائي، وإما أنهم ينظرون لها مثلما سبق، وفي كلتا الحالتين يُرفضون شعبياً ورسمياً، ولعل الظالمين تلقوا صفتين جديدتين أخيراً، الأولى: أن مجلس الشورى أقر توصية الرياضة في مدارس البنات، رغم أنوفهم، ولم تُفلح بشوتهم في وقف ذلك القرار، والثانية: كان الأمر الكريم برفع سن ابتعاث وإيفاد الموظفين للدراسة إلى ٤٥ عاماً، فهذا الحراك كان من الممكن أن يمضي قدماً من دون صراخ أو عويل أو طعن وتشكيك، فلا يوجد أي حراك رسمي يشّرع ما يوحي به الظالميون، فالرياضة ستكون داخل المدارس، ولأوضحها في شكل أكبر، لا يوجد ذكور في تلك المدارس. أما الابتعاث الذي حاولوا -ويحاولون- إلصاق كل موبقات الأرض به، فهم ليسوا مضطرين إلى العمل به، إذا لم يكن مقنعاً لهم ولأسرهم. أما أن يتقدموا نيابة عن أطيايف المجتمع.. فمن فوضهم أو طلب منهم أو من يمثلون أصلاً؟ والسؤال الأهم والأبرز: من أنتم...؟^(١).

(١) انظر المقال في جريدة الحياة العدد ١٢٩١٧ تاريخ ١٠/٤/٢٠١٤.

وعن الدعوة إلى فصل الحياة عن الشريعة وأحكامها يقول أحدهم في مقال له بعنوان (المعلمات وتجربة تدريس البنين):

(أقر مجلس الشورى السعودي أخيراً توصيتين تتعلقان بالجانب التعليمي، الأولى بشأن دراسة إضافة برامج اللياقة البدنية والصحية في مدارس البنات، بما يتفق مع الضوابط الشرعية التي صاحبها نقاش وجدل حام حولها في الأعوام الأخيرة، والأخرى إجراء دراسة تقييمية في تجربة إسناد طلاب الصفوف الأولية البنين إلى المعلمات في التعليم الأهلي.

القرار كان خطوة إستراتيجية مهمة وجريئة في الوقت ذاته، من حيث تحسين مستوى مخرجات التعليم وتطويرها في بلادنا، بدءاً من المراحل التأسيسية، على ضوء الإيجابيات التي تم تلمسها من التجربة الميدانية، وقد قوبلت الخطوة برفض واستياء شديدين من بعض المتشددین والمحتسين، وخُطِطت الأوراق حول هذه القضية من خلال زجها بقضية تطبيع الاختلاط بين الأبناء والبنات، وحصول مفاسد شرعية من ذلك، والتجاهل المتعمد لما نص عليه تنظيم وزارة التربية من اشتراط الفصل التام بين الذكور والإناث، وهنا يجب توضيح قضية مهمة، وهي أن النقاش والخلاف حول مثل هذه القضايا الدنيوية والمستجدات الحديثة هو خلاف يجب

أن يكون خارج النطاق الديني وبعيداً عن قضية الفتوى والتحليل والتحرير، استناداً إلى الحديث النبوي الشريف: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»، فالقضايا التنظيمية لشؤون المجتمع التعليمية والاجتماعية ونحوها مستجدات دنيوية تحتاج إلى نظم وتشريعات مدنية تصب في مصلحة الناس والمجتمع والدولة.... وهذا يقودنا إلى الإشارة إلى قضية أخرى مهمة، يجب علينا مراعاتها وعدم إغفالها، وهي مسألة التخصص، حتى نسلم ونكون في منأى من عملية التداخل بين ما هو ديني، فيكون خاضعاً لسلطة ورأي الفقيه والعالم الشرعي، وبين ما هو دنيوي بحاجة بالدرجة الأولى - على سبيل المثال - إلى المتخصص في علم الاجتماع والتربية والنفوس. فالخلط بين هذين الأمرين غالباً ما يقع - وللأسف - في تعاطينا مع كثير من قضايانا الدنيوية، بحيث تُقَحَّم الفتوى في الشؤون الحياتية والتنظيمية الخاضعة للمصلحة العامة، التي لا علاقة لها في شكل مباشر بالجانب الشرعي تحليلاً أو تحريماً^(١).

وتأمل المقال التالي وما يحمل في طياته من الكذب والحقْد على المحتسبين والسخرية بهم والفجور في الخصومة، وهذا شأن المنافقين.

يقول المقال: (إن الذين يخللون ويحرمون ويصدرون فتاوى تحط من قدر المرأة وتجهض مكتسباتها، يجب أن يوضع حدّ لهم، فما من أحد

(١) انظر المقال في جريدة الحياة العدد (١٢٩٢٢) في ١٥/٤/٢٠١٤.

كلفهم بذلك، أو طلب منهم أن يكونوا أوصياء على المرأة، والملك -حفظه الله- قصر الفتوى على هيئة كبار العلماء، وما أصدره الملك من قرارات حظيت بمباركتهم، فلم يتجاوز أولئك المحتسبون؟ كما مُنع التجمهر، ومنع التحريض، فمن يتجهرون عند جهة حكومية إنما يقومون بالتحريض على من فيها من مسؤولين، وهذا يعني قمة التحدي للأوامر الملكية، وإن تغطوا بالدفاع عن الدين، فأولئك ميسسون لا همَّ لهم إلا فرض أجندتهم التي صيغت في الردهات السرية للحزبيين والمتأخونين!

المحتسبون يشغلون الرأي العام بتلك الآراء والمواقف المريبة، والمشككة في حق المرأة في اختيارها الحياة الكريمة التي ترضيها وتستحقها، ويعملون على إرهابها دينياً، وهذا شأن بعض المتشددین في كل العقود، حالهم كحال من أراق دم الحسين وسأل عن حكم دم البعوض، يغمضون أعينهم عن الفساد وإهدار أموال الدولة، والغش في مواصفات بناء المشاريع، تزوير صكوك الأراضي من قبل بعض كتاب العدل، وتقاضي الرشى من بعض القضاة، والتأمر على الدولة، وممارسة الإرهاب من المنتمين لقاعدة القبور ابن لادن، ونهب أموال الصدقات لصرفها على الإرهابيين، وغلاء الأسعار الذي يعصف بمحدودي الدخل، والتستر على مخالفتي الإقامة، وتزوير الشهادات العلمية الذي تلبس فيه بعضهم، وغير ذلك من الأمور التي تهدد أمن

الوطن واستقراره، وتصب في خانة الاحتساب، لكنهم لا يجدون ما يمكن أن يزعزع الدين ويهدد أركانه سوى رياضة المرأة وابتعاثها^(١).

وقد اشترك في تشويه المحتسبين ومؤسسات الاحتساب والسخرية منهم ثلاث جهات: (الروايات والمسلسلات، وغالب الصحف المحلية، ومواقع الإنترنت). ومن أشهر المواقع التي تشن هجوماً وسخرية بالمحتسبين ومؤسساتهم موقع (الشبكة الليبرالية السعودية)، وموقع (طومار) وبالرجوع إلى هذين الموقعين نرى التشويه والألفاظ البذيئة كوصفهم للمحتسبين (بالرجعيين، أشباه الحيوانات، وحثالة البشر، والفئة الشيطانية، الوحوش البشرية، شلة إبليس، المنحرفون)، كما نرى في هذه المواقع التآليب على المحتسبين والمطالبة بحل الهيئة وتسريح موظفيها وتحريض الدولة بأن تضع حداً لهم ويقولون: ما دامت الهيئة موجودة فليس للإنسان كرامة. الهيئة تمارس الإرهاب المنظم.

• الصفة السادسة: تولى الكفار ومظاهرتهم وطاعتهم والتماس رضاهم بسخط الله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿[النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

(١) مقال في جريدة الرياض بعنوان (الاحتساب فوضى انتفايئة) عدد (١٦٧٢٩).

وقال ﷺ عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

والأمثلة على هذه الموالاة والمحبة من منافقي زماننا للكفار لم تعد خافية على أحد، فالسنتهم وأقلامهم ومواقفهم تطفح بذلك دون حياء أو خجل.

فمن ذلك:

- تعاون هؤلاء المنافقين الجدد مع أعداء الأمة من الدول الكافرة، وما علينا إلا الرجوع إلى بعض التقارير التابعة لبعض مراكز البحوث الغربية، التي تنادي بدعم هذه الفئة واستغلال أنشطتها ومنابرها لنشر الديمقراطية الغربية^(١).

- ومن ذلك محاولتهم تعطيل عقيدة الولاء للمؤمنين والبراءة من الكفر وأهله، وإلغاء الحصر الذي جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، بمصطلح (التعايش السلمي)، وهم لم يتعايشوا مع المسلمين سلمياً إلى اليوم، ولن يتعايشوا معهم إلى آخر الزمان، ولكنهم أرادوا ذبح ضحاياهم وهم مستسلمون، ثم قذفوا

(١) انظر مثلاً: تقرير لمركز البحوث الأمريكي (رانند) بعنوان: (الإسلام الديمقراطي المدني: الشركاء والمصادر والإستراتيجيات).

بمصطلح (الآخر) بديلاً للمسميات الشرعية التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي الكافر والمنافق والمترد والمبتدع، وظن كثير من الناس أن تلك المصطلحات المحدثه مجرد استعمالات لغوية مولدة، اقتضاها تطور اللغة الفكرية والصحفية ليس غير.

ولما رأى المنافقون أن هذه المصطلحات قد رسخت في أذهان كثير من الناس، وكثر استعمالها، وقل استنكارها واستغرابها بدءوا بالإلحاح على مضامينها، واستخراج معانيها، ودعوة الناس إلى لوازمها، فانبرى بعضهم إلى نفي الحقيقة المطلقة، ولازم ذلك نفي اليقين بالإسلام؛ لأنه في واقع الأمر حقيقة مطلقة، وآخرون منهم زعموا أن جميع الطرق توصل إلى الله تعالى، وأن الأديان يترك الفصل فيها إلى عدل الله يوم القيامة، وأنه لا يجوز الحكم على الكفار بالنار، بل لا يجوز إطلاق الكفر على اليهود والنصارى، ولا على من لم يؤمن بالإسلام إذا لم يحاربه، وزعم بعضهم أن من التشويه والتحريف لكلمة (لا إله إلا الله) القول باقتضائها الكفر بالطاغوت، ونفي سائر الديانات والتأويلات، أو أن معناها: لا معبود بحق إلا الله تعالى.

وفي هذه الأقوال الفاسدة ومثيلاتها إبطال لدين الإسلام، وتصحيح لكفر الكفار، وإفراغ لكلمة التوحيد من معانيها ولوازمها، ودعوة إلى اعتناق الإلحاد العلماني الغربي.

- ومن ذلك مباركة منافقي زماننا لغزو المحتلين لبلاد المسلمين وتأيدهم لذلك، فها هو أحدهم يبرر غزو أمريكا للعراق ويبن شرعيته، وأنه جاء للتحرير ورفع الظلم، وعليه فلا يجوز جهاد الأمريكان ولا الدفاع عن العراق^(١). بل طالب بالدعاء لهم بأن يمنح الأمريكان أطول مدة للبقاء في العراق، وأن يرزقهم الصبر والتحمل على ما يلاقونه من المتاعب والمشاق^(٢).

وها هو أحد رؤوس النفاق الليبرالي يعتب على أمريكا تقصيرها في تدخلها في تغريب مجتمعات المسلمين وإعلامهم، ويسدي لها النصائح في ذلك، حيث يقول: (لماذا لم تتقدم أمريكا بخطواتها الإعلامية المطلوبة والمفروضة، التي كان يمكن لها أن تحضر التربة العربية لزراعة ما تحاول أمريكا أن تزرعه الآن من خلال حملتها العسكرية على العراق... ولماذا لم تحفل ولم تستمع الإدارة الأمريكية لدعوة بعض المثقفين العرب الشجعان في ضرورة تدخلها في إعلام الدول العربية الرسمي، ومن هؤلاء المثقفين المفكر العفيف الأخضر)^(٣).

ويقول فض الله فاه: (الليبراليون العرب هي الفئة الوحيدة في العالم العربي التي تشجع وتدعم وتبارك ما تم في العراق)^(٤)، ويقول

(١) صحيفة عكاظ تاريخ ٢٣ / ١ / ١٤٢٤.

(٢) صحيفة عكاظ تاريخ ١٩ / ٥ / ١٤٢٤.

(٣) زوايا حرجة. شاعر النابلسي ص ١٣٦.

(٤) (بالخط العريض) شاعر النابلسي ص ٨١.

أيضاً: (الليبراليون هم فدائيو الحرية، فهم الذين أيدوا غزو العراق منذ اللحظة الأولى)^(١).

وهم يرون التطبيع مع اليهود في فلسطين وعدم التفكير في المقاومة والجهاد واحترام اتفاقيات السلام، يقول شاكر النابلسي: (إن اتفاقيات السلام كاتفاقية كامب ديفد ١٩٧٩ واتفاقية اوسلو ١٩٩٣ واتفاقية وادي عربة ١٩٩٤ يجب أن تصبح اتفاقيات شعبية بين الشعوب، بدلاً من أن تكون اتفاقيات دول فقط)^(٢)، ويقول أيضاً: (إن إظهار المجتمع المدني العربي وخاصة من جانب الفنانين المثقفين والصحافيين مشاعر ودية، إزاء الإسرائيليين يكسب المفاوض العربي ثقة الرأي العام الإسرائيلي)^(٣).

وعندما أصاب أمريكا الانهيار الاقتصادي الكبير، وفرح المسلمون بذلك، انبرى أحد المغرمين من القوم بحب أمريكا يتباكى على ما أصابها، ويدافع عنها، ويرى أن وجودها ضمانة حقيقة للأمن العالمي.

حيث يقول: (صحيح أن تراجع الاقتصاد الأمريكي قد يؤدي إلى ضمور النفوذ الأمريكي، وعدم قدرته على الفعل الحاسم خارج حدود أمريكا. قد يحدث هذا أو شيء من هذا القبيل، فيما لو حدث

(١) سجون بلا قضبان ص ٣٢.

(٢) الليبراليون الجدد ص ٢٥.

(٣) بالخط العريض ص ٦١.

كساد حاد لكن هذا ليس في صالح أي من دول العالم التي تريد أن تعيش في سلام. فأمريكا برغم كل شيء وبرغم كل الأخطاء، هي في النهاية قوة إيجابية، وضمانة حقيقية للأمن العالمي، وبدونها قد ينهار نظام الأمن في العالم، فلا تستطيع الدول - باستثناء دولتين أو ثلاث - أن تضمن حدودها، ولا أن تحمي نفسها مما يشبه شريعة الغاب.

ما لا يريد أن يعترف به التقليديون والغوغائيون أن أمريكا هي أقل الإمبراطوريات عبر التاريخ إضراراً بالآخرين، وأن أخطاءها - برغم كل ما يقال - أقل بكثير من أخطاء الآخرين. بل إن العائد الإيجابي الأهمي للقوة الأمريكية، يفوق كل ما قدمته الإمبراطوريات عبر التاريخ البشري كله، وهي حقائق يعرفها الجميع، ومع هذا يحنق عليها الجميع؛ لأن ضريبة النجاح والتفوق تفرض مثل هذا السلوك، وخاصة من قبل أولئك الفاشلين، الذين لا يملكون إلا جذوة الحسد السلبي، الذي نراه منهم في عبارات الشماتة الجوفاء^(١).

وها هو أحد الكتاب في بلاد الحرمين يسخر من المحتسبين الذين أنكروا فتح باب الابتعاث للمراهقين والمراهقات وتقرير الرياضة البدنية في مدارس البنات، ويبرر سخريته بأن هذا من شأنه أن يجعلنا سخرية للغرب المتحضر، حيث يقول: (لو أتيت باسترالي أو كندي أو

(١) انظر جريدة الرياض العدد (١٤٧٣١) تاريخ ٢٣ / ١٠ / ١٤٢٩.

بريطاني، وقلت له: إنا على خلاف في موضوع رياضة البنات لأمطرك بالسخرية والاستغراب^(١).

ومما يدخل تحت موالاة الكفار وطاعتهم ما يقابل ذلك من عدا وبغض للمصلحين من المسلمين والشتمات بهم واستعداد الحكومات عليهم والفرح بما يصيبهم من الأذى، والحزن والغم عندما تحل بالمسلمين نعمة وخير ونصر. وهذا مصداق قول الله ﷻ في إخوانهم المنافقين السابقين: ﴿إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْهُمْ فَارْحُوكَ﴾ [التوبة: ٥٠].

قال الشوكاني رحمه الله: (وهذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين، وسوء أفعالهم، والإخبار بعظيم عداوتهم لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، فإن المساءة بالحسنة، والفرح بالمصيبة، من أعظم ما يدل على أنهم في العداوة قد بلغوا الغاية)^(٢).

وها هم منافقو زماننا يستعدون الحكام على المصلحين، حيث يقول أحدهم عن المؤمنين المحتسين: (لقد أفسد هؤلاء المحتشدون حياة الناس، وسمموها بفكرهم السافر. في هاشتاق «زيارة المشايخ لبيان خطر الابتعاث»، الذي وضعه المغردون، كتب أحدهم هذه

(١) انظر جريدة عكاظ عدد (٤٦٨٠).

(٢) فتح القدير ٢/ ٤٢٠.

العبارة قائلاً: «إذا رأيتموهم يقادون إلى السجن ويجلدون، فاعلموا أن وطننا قام من كبوة الصحو، وبدأ في تصحيح أموره»^(١).

وها هي امرأة منهم تصف المحتسبين بالإرهاب، وتدعو إلى الضرب عليهم بيد من حديد، فتقول:

«إن الواجب الوطني والأمني يحتم إعادة توجيه البوصلة، فمسيرة الإصلاح مسيرة لا تتم بالنوايا الحسنة، إنها مسيرة هدم وبناء في آن واحد، مسيرة تنهض بجهد تنظيم إداري، وبجراحة تغيير بنيوية ذهنية وتشريعية، وكما هي مسيرة تطور فهي مسيرة أمن ارتباطية، بمعنى لا يمكن أن توفر الأمن في بيئة حاضنة للتطرف والإرهاب، الإصلاح يتطلب العزم الجازم على اقتلاع كل أثر للمتطرفين فكرياً ابتداءً وأمنياً ارتباطاً، فخطر الإرهابي يعتمد على البدايات الذهنية الباطلة، تلك الشعلة المتقدة لفرز مزيد من الإرهابيين المجرمين.

ختاماً: لقد أسقط في يد المتطرفين، وأصبحت اعتراضاتهم مثار سخرية العالم أجمع، لكن الحقيقة التي علينا ألا نغفل عنها ثانية واحدة هي: (أن الرضوخ للمتطرفين بمثابة تسليم الوطن للإرهابيين) حمى الله وطننا بعنايته وحفظ مليكننا الصالح بحفظه وأدام عزه، ليقودنا بعزمه الصادق لعز بلادنا وإنسانه»^(٢).

(١) انظر المقال في جريدة الحياة العدد (١٢٩١٩) تاريخ ١٢/٤/٢٠١٤.

(٢) انظر المقال في جريدة الرياض العدد (١٦٧٣٣) وتاريخ ١٧/٤/٢٠١٤.

• الصفة السابعة: التخذيل والتشيط عن جهاد الغزاة والمحتلين والسخرية من المجاهدين

يقول الله ﷻ عن المنافقين الأولين: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨].

وقال ﷻ عنهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

وقال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْتِلُ الْإِثْرُ لَكُمْ قُلْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

وقال ﷻ عنهم: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

هذا ما وصفه الله ﷻ للمنافقين بنكوسهم عن الجهاد في سبيله،
وتخذيل الناس، وتشيطهم عنه، بل والسخرية من المجاهدين.

وما نسمعه اليوم من منافقي زماننا هو عين ما يقوله إخوانهم من
المنافقين السابقين، فهذا هو أحدهم يقول:

(التخلي عن خيار المقاومة نهائياً، والخروج من دوامة الحروب والقضية الفلسطينية، والجنوح إلى السلام، وقبول الأمر الواقع، وإغلاق كل ملفات القتال، والقبول بالسلام دون شروط، بل بما يراه العدو مناسباً بحجة: (أن المهزوم يقبل ولا يفرض)^(١)، بل ويوجهون أشد أنواع النقد لكل عمل من أعمال المقاومة والجهاد تقوم به تلك الشعوب، وكذلك يدعون إلى إلغاء تدريس أحكام الجهاد بزعم أنه هو (الأساس الذي يستغله المفجرون والمخربون، ليجندوا أبناءنا الآن فيما يسمونه جهاداً))^(٢).

وقد مررنا في الصفة السابقة عند ذكر تولي المنافقين للكافرين ومحبتهم من دون المؤمنين ما قاله بعض رموز المنافقين الليبراليون (شاكر النابلسي وغيره) من الدعوة إلى ترك المقاومة المسلحة للمحتلين من يهود وغيرهم واستبدالها بالسلام والتطبيع والرضى بالأمر الواقع، وهذا مقال ينضح بما فيه كتبه أحدهم في صحيفة محلية بروح منهزمة يدعو فيه إلى ترك مقاومة الغزاة والتيئيس من هزيمتهم. يقول -هده الله-:

(يقولون: الشعوب لا تقتنع ولا تعتبر ولا تتغير، حتى تُجرب وتعاني وتكتشف، لتكون النتائج مبنية على تجربة حقيقية وليس مجرد

(١) انظر مقال (الحل الذي لا غيره) عكاظ عدد (١٨٦٣).

(٢) انظر مقالة (عذراً يا شيخ صالح) جريدة الوطن عدد (٢٨٥).

نظريات ورغبات تفتقد إلى الواقعية والموضوعية.. الغرب المتفوق لم يصل إلى تفوقه الحضاري إلا من خلال برك من دماء على مر قرون؛ عرف من خلالها أن السلام وليس الحرب، والتعايش وليس الاقتتال، هو شرط بقاء الدول ونموها وتحضرها في هذا العصر. حركة طالبان في فترة ما حكمت أفغانستان، وحصنت الحركيين المتأسلمين القادمين إليها من كل بقاع العالم وحمتهم، وظن بعض هؤلاء، وتحديدًا (الجهاديين منهم، أن التسلل إلى أمريكا، وغزوها، ونسف معالمها، سيقيم دولة الإسلام القوية المتطورة والمتحضرة التي إليها يطمحون، وفعلاً نفذوا ما يعتقدون في بدايات العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، فكانت هذه الغزوة وبالأعلى ليس على الجهاديين فحسب، وإنما على بقاء دولة طالبان التي كانت حينها فتية.. سقطت دولة طالبان، فعادت وعاد مجاهدوها إلى حيث بدؤوا من جديد، إلى الكهوف، وإلى الدم، والعمليات الانتحارية، وتفخيخ السيارات، يريدون أن يُعيدوا مجدًا لهم قام لأسباب محض استخباراتية، وصراعات بين القوى العالمية، وسقط -أيضًا- لأسباب استخباراتية عندما استنفد أغراضه؛ غير أن الإنسان الأفغاني الذي عرف ويلات الحروب الأهلية، ودمويتها، ومعنى غياب الاستقرار، اتجه إلى حيث الحل المدني وصناديق الانتخابات، وليس إلى حيث شعارات مجاهدي طالبان الكهنوتية؛ فقد شارك نحو ٧ ملايين أفغاني بمحض إرادتهم

في انتخابات (الدولة الأفغانية المدنية) الأخيرة برغم تهديدات طالبان بأنها ستنسف هذه الانتخابات، لأنها غير إسلامية، لكن الأغلبية الساحقة من الأفغانيين لم تهتم بطالبان وتهديداتها وشعاراتها، بعد أن عايشوا هذه الشعارات والحلول المستنسخة من كتب التاريخ، ولم يجدوا فيها غير الولايات والدماء واللا استقرار، نجاح الانتخابات الأفغانية الأخيرة، وهذا الكم الكبير من الأفغان الذين شاركوا فيها، يعني أن الحل الطالباني فشل عملياً على أرض الواقع فشلاً ذريعاً، وانصرف الناس عنه. وفي سوريا الثورة قامت حركات جهادية تُقاتل بنفس المنطق والشعارات والأهداف التي كانت طالبان تُقاتل من أجلها، فقد كانت (داعش وجبهة النصرة) تمثلان التجربة الطالبانية بحذافيرها لكن بنسخة عربية، ومثلما استغلت أجهزة الاستخبارات العالمية طالبان لتنفذ أهدافاً معينة تصب في مصالحها، استغلت -أيضاً- أجهزة الاستخبارات الإقليمية والعالمية الحركتين استغلالاً استخباراتياً محترفاً، وكما أدرك الأفغان طوال حكم طالبان، ومن ثم سقوطها، ويلات هؤلاء المتأسلمين، ووحشيتهم، وكراهيتهم للسلام، هاهم السوريون، ومعهم العرب والمسلمون في كل بقاع الأرض، يُتابعون أولاً بأول، وبالصوت والصورة، ومن خلال الفضائيات، ومواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت، وحشية

ودموية وقسوة وفظاعة هذه الحركات المتأسلمة؛ ولعل ردة الفعل الشعبية الواسعة المتدمرة إلى درجة القرف من هذه المشاهد البشعة، ستجعل الإنسان العربي يصل سريعاً إلى ما وصل إليه الإنسان الأفغاني حتماً^(١).

ومن مخازي منافقي زماننا فرحهم بما يصيب المسلمين من مصائب ونكبات. ولما احتلت الدول الكافرة الباغية بعض بلدان المسلمين فرح المنافقون وشمتموا ودبجوا المقالات دفاعاً عن الغازي المحتل الغاشم الذي جاء لينشر السلام!!! زعموا.

هذه أبرز الصفات النفاقية التي شابه فيها منافقو زماننا - بل فاقوا فيها - سلفهم المنافقين الأولين، وهي على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، وإلا فهنالك صفات أخرى كثيرة تشابه فيها المعاصرون مع الأولين، أذكر بعضها فيما يلي على وجه الاختصار والسرعة.

أ- قلة ذكر الله ﷻ: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، والمتتبع لمقالات المنافقين الجدد ومواقعهم وكتبهم لا يكاد يجد فيها ذكراً لله ﷻ أو أحد أسمائه الحسنی، وتكاد تخلو من آية من كتاب الله أو حديثاً من أحاديث الرسول ﷺ. بينما نجد أسماء فلاسفة الغرب

(١) انظر مقال (تعري الجهاد المزعوم) جريدة الجزيرة عدد (١٥١٩٥) تاريخ ٢٠١٤/٥/٦.

كهيجل وانشتاين ولوثر يتكرر كثيراً في كتبهم، ويطعمون ذلك ببعض فلاسفة العرب المنحرفين كابن رشد، وابن سينا، والراوندي.

ب- ادعائهم الإصلاح في مشاريعهم الإفسادية، ولا سيما مما يدعون إليه من تغريب المجتمع، وجعله تابعاً لكفار الغرب في قيمه وسلوكه، وهذا واضح جداً في كتاباتهم، بل صرح بعضهم بذلك، حيث جعل قدوته وقبلته الغرب، فدعى بكل صفاقة إلى التغريب، هائماً في حبهم، متهاكاً في دعوته وإفساده.

قال الله ﷻ: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

ج- ومن ذلك غيظهم الشديد من المحاضن التربوية في حلقات تحفيظ القرآن والمراكز الصيفية والأنشطة اللاصفية، وهجومهم عليها واتهام القائمين عليها بالفساد والإفساد. فهذا أحدهم يكتب مقالات عدة في إحدى الصحف تحت عنوان (ثقافة الموت في بلادنا)^(١) ومقال آخر بعنوان: (دعاة لا معلمون)^(٢)، انتقد فيهما الكاتب الأنشطة اللاصفية في المدارس الحكومية، واعتبرها أحد منابع الإرهاب.

(١) صحيفة الوطن العدد (١٣٤٣) تاريخ ٨/٤/١٤٢٥هـ.

(٢) صحيفة الوطن العدد (٩٢١) تاريخ ٦/٢/١٤٢٤هـ.

وآخر يذهب إلى أن المراكز الصيفية مرتع للفكر الضال والمنحرف^(١). وهم بذلك يدعون الإصلاح، ويسمون تيارهم الليبرالي النفاقي (التيار الإصلاحية)، وصدق الله العظيم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢].

د- مرض الشهوة والشبهة في قلوبهم: وهذا واضح في تهالكهم في دعوة المرأة إلى السفور والاختلاط والتمرد على الرجل (أباً أو أخاً أو زوجاً) بشبهات يلقونها، وهذه الصفة تكاد تكون مشتركة بين المنافقين الليبراليين الجدد، فلا يكاد يخلو مقال لهم عن المرأة، وكأن ليس لديهم من مشاريع إلا المشروع الأنثوي. ولا يخفى ما في هذا من إشاعة للفاحشة في المؤمنين.

ونظراً للهجوم الشديد على المرأة المسلمة والسعي لتغريبها ونشر الفاحشة بدعوتها إلى السفور والاختلاط والتمرد على الرجل (أباً أو أخاً أو زوجاً). انقل هنا بعض كتابات القوم التي تنم عما في قلوبهم من الحرج والكره لما أنزل الله ﷻ، واعتراضهم على ذلك بشبهات وشهوات.

(١) انظر المقال في جريدة الجزيرة العدد (١٣٠٥٩) تاريخ ٢٦ / ٦ / ١٤٢٩.

- فهذا أحدهم يرى نزول المرأة في الفنادق والشقق المفروشة لوحدها مظهرًا من مظاهر الإصلاح^(١).
- وآخر يرى أن إنشاء جامعة مختلطة من الجنسين مشروع إصلاحي يستحق الإشادة^(٢).
- وهذه امرأة من القوم تعد دخول المرأة إلى المسرح السعودي خطوة قوية باتجاه مشروع الإصلاح^(٣).
- وأخرى تقول: إن القول بأن عالم المرأة هو المنزل والزوج والأولاد معتقدات تقليدية، تعارض التنمية والتحديث^(٤).
- وأخرى تقول: (نحن لا نريد متعلمات يجلسن في بيوتهم في انتظار ابن الحلال، الذي قد يأتي وقد لا يأتي)^(٥).
- وأخرى تطالب بتطبيق الاتفاقيات الدولية التي وقعتها الحكومة، ومنها اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة. وتعدّها مرجعًا لحماية المرأة والمطالبة بحقوقها^(٦). ولا يخفى على من يقرأ بنود هذه الاتفاقية ما فيها من إلغاء لكثير من التشريعات الإسلامية.

(١) انظر المقال في صحيفة عكاظ العدد (٢٤١٤) تاريخ ١٧/١/١٤٢٩هـ.

(٢) صحيفة الوطن العدد (٢٨١٩) تاريخ ١٤/٦/١٤٢٩هـ.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) وقع العوامة في مجتمعات الخليج ص ١٢٥.

(٥) صحيفة البلاد عدد (١٢٦٥).

(٦) صحيفة الرياض العدد (١٣٧٢٠).

النفاق الأصغر خلل في حياتنا

وبعد أن تعرفنا على معنى النفاق وأنواعه وأبرز صفات أهله، فإنه ينبغي لمن عافاه الله ﷻ من النفاق الأكبر، الذي هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر أن يفتش في نفسه، ويسعى لتخليصها من النفاق الأصغر وأعماله وشعبه. حيث إن بعض هذه الصفات التي سبق الإشارة إليها تنتشر في قلوب كثير منا وأخلاقهم ومعاملاتهم، ونحن نشعر أو لا نشعر، ولكن ما بين مكثر ومقل، وإن أخطر ما يكون من التلبس بهذه الصفات أو بعضها أو التهاون في علاجها والتخلص منها، هو أن تتراكم على القلب، ويخشى أن تؤول بصاحبها إلى النفاق الأكبر، والعياذ بالله تعالى. وكم من خاتمة سوء كان سببها دسائس خفية في القلوب ظهرت عند هول المطلع وخروج الروح.

وأخص بهذه الوصايا والتنبيهات نفسي الأمارة وإخواني الدعاة والمجاهدين، وذلك لظهور بعضها في حياتنا، وهذا خلل يجب أن يتدارك، وداء يجب أن يعالج، قبل أن يستفحل ويصعب علاجه.

وقبل أن أذكر بعض هذه الصفات والأخلاق الذميمة أذكر بالحديث الصحيح الذي سبق ذكره عند الحديث عن أنواع النفاق، والذي ذكر فيه الرسول ﷺ أصول أعمال المنافقين وخصالهم. فعن عبدالله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان

منافقًا خالصًا. ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(١)، ولا يعني هذا الحديث أن هذه الصفات الأربع هي صفات المنافقين العملية فحسب، بل إن صفات المنافقين كثيرة. ووجه الاختصار على هذه الصفات لأنها -والله أعلم- منبهة على ما عداها إذ أصل الديانة في ثلاث: القول والفعل والنية، فنبه على فساد القول بالكذب، وعلى فساد الفعل بالخيانة، وعلى فساد النية بالخلف^(٢). يقول الشيخ السعدي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث:

النفاق أساس الشر. وهو أن يظهر الخير، ويطن الشر. هذا الحد يدخل فيه النفاق الأكبر الاعتقادي، الذي يظهر صاحبه الإسلام ويطن الكفر. وهذا النوع تُخرج من الدين بالكلية، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار. وقد وصف الله هؤلاء المنافقين بصفات الشر كلها: من الكفر، وعدم الإيمان، والاستهزاء بالدين وأهله، والسخرية منهم، والميل بالكلية إلى أعداء الدين؛ لمشاركتهم لهم في عداوة دين الإسلام. وهم موجودون في كل زمان، ولا سيما في هذا الزمان الذي طغت فيه المادية والإلحاد والإباحية.

(١) البخاري (٦٠٩٤)، مسلم (٢٦٠٧).

(٢) انظر فتح الباري ١/ ٩٠.

والمقصود هنا: القسم الثاني من النفاق، الذي ذكر في هذا الحديث، فهذا النفاق العملي - وإن كان لا يخرج من الدين بالكلية - فإنه دهليز الكفر، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال الأربع فقد اجتمع فيه الشر، وخلصت فيه نعوت المنافقين، فإن الصدق، والقيام بالأمانات، والوفاء بالعهود، والورع عن حقوق الخلق هي جماع الخير، ومن أخص أوصاف المؤمنين. فمن فقد واحدة منها فقد هدم فرضاً من فروض الإسلام والإيمان فكيف بجميعها...

واعلم أن من أصول أهل السنة والجماعة: أنه قد يجتمع في العبد خصال خير وخصال شر، وخصال إيمان وخصال كفر أو نفاق. ويستحق من الثواب والعقاب بحسب ما قام به من موجبات ذلك، وقد دلّ على هذا الأصل نصوص كثيرة من الكتاب والسنة. فيجب العمل بكل النصوص، وتصديقها كلها. وعلينا أن نتبرأ من مذهب الخوارج الذين يدفعون ما جاءت به النصوص: من بقاء الإيمان وبقاء الدين، ولو فعل الإنسان من المعاصي ما فعل، إذا لم يفعل شيئاً من المنكرات التي تخرج صاحبها من الإيمان. فالخوارج يدفعون ذلك كله، ويرون من فعل شيئاً من الكبائر ومن خصال الكفر أو خصال النفاق خارجاً من الدين، مخلداً في النار، وهذا مذهب باطل بالكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة^(١).

(١) بهجة قلوب الأبرار ١/ ص ٢٣.

وبعد هذه المقدمة عن النفاق الأصغر، وذكر أهم خصاله المذكورة في الحديث، نأتي لذكر شيء من التفصيل في مزيد من صور هذا النفاق، التي تنتشر في حياتنا اليوم، ويتساهل بها كثير من الناس على خطورتها، وسنلاحظ في أكثرها أنها تعود إلى الصفة الكبرى والخصلة العظمى من خصال المنافقين، ألا وهي «الكذب». ومن أبرز هذه الصفات التي تشكل خللاً في حياتنا ما يلي:

• الصفة الأولى: الكذب في الحديث وإخلاف الوعد والعهد

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَأَعَقَبَهُمُ نَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]، وجاء ذكر هذه الخصلة، في الحديث السابق بما يغني عن إعادته هنا، والمقصود التنبيه على ذم هذه الخصلة، وأنها أساس النفاق الاعتقادي والعملي، ومع ذلك نراها منتشرة في حياتنا ما بين مقل ومكثر وما بين واقع بسببها في كبيرة وواقع في صغيره، وإخلاف الوعد والعهد من الكذب الشنيع، ومع ذلك فما أكثر من يتساهل بالمواعيد مع إخوانه، ولا يكثرث في الوفاء بها، أو يفي بها بعد فوات الوقت في الموعد، وكم ممن لا يفي بعهده، ولا يؤدي الأمانات إلى أهلها.

وما أكثر من يكذب اليوم على أولاده أو طلابه، أو لا يفي لهم بوعوده لهم. وما أكثر من لا يفي بما يبرمه من عقود مع إخوانه المسلمين، حتى امتلأت المحاكم الشرعية من جراء ذلك مما يعرفه القضاة والمحامون.

وإخلاف الوعد المذموم هو من يبيت سلفاً وينوي إخلاف وعده وعهده، أما من ينوي الوفاء بالوعد لكنه لم يتمكن من ذلك لعارض من نسيان أو عجز فلا لوم عليه إن شاء الله تعالى. وهذا ينبهنا على أن لا نعطي وعداً أو عهداً إلا ويغلب على ظننا الوفاء به. أما من لمس من نفسه العجز ووجود العوائق التي تعترض وفاءه بوعده أو عهده فيجب عليه ابتداءً أن لا يحمل نفسه ما لم تحتمل، والسلامة والعافية في الدين لا يعدلها شيء.

• **الصفة الثانية: الفجور واللد في الخصومة والفحش والبذاء**
وقد ذكرت هذه الصفة في (خصال المنافق) في الحديث السابق. والفحش والبذاء ذكرت في قوله ﷺ: «إن الشح والفحش والبذاء من النفاق»^(١).

والفجور في الخصومة أن يخاصم المخاصم بالباطل، وأن يتجاوز الحد في خصومته بما يظهر عليه من الظلم والعدوان في خصومته

(١) البيهقي في الأداب ١/ ١٨٤ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٦٣٠).

سواء في لسانه أو يده، ومن ذلك الفحش في الكلام من السب واللعن وبذيء الكلام ورديئه. وما أكثر من تظهر عليه هذه الصفات اليوم عند الخصومات، وقد يعدها بعضهم من الشجاعة والقوة وعزة النفس، وما درى أنها من صفات المنافقين.

• **الصفة الثالثة:** الاهتمام بجمال المظهر والحديث على حساب المخبر والجوهر وجمال السريرة والعمل^(١).

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وإن إهمال السرائر وعدم العناية بها وتوجيه الاهتمام والعناية بجمال المظهر أو من قول وصورة ودنيا زائلة إنما هو علامة على مرض في القلب ونفاق عملي، قد يؤول بصاحبه إلى النفاق الأكبر. وإن الناظر في حياتنا اليوم وما يسيطر عليها من الاهتمامات ليرى أمراً مؤسفاً ينذر بالخطر. يصور هذه الحالة الدكتور: عبدالكريم بكار فيقول: (أنزل الله ﷻ في المنافقين سورة سميت باسمهم، تفضح بعض مواقفهم، وتجبر عن بعض صفاتهم، وكان من جملة ما نعتهم الله تعالى به قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾. فقد وصفهم الله تعالى بأن الناظر إليهم يعجب بجمال أجسامهم، ومن يسمعهم يؤخذ بفصاحة ألسنتهم، لكنهم كاهياكل الفارغة: أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام.

(١) انظر كتاب (يوم تبلى السرائر) للمؤلف وهو من منشورات العيكان.

وتطرح هذه الآية الكريمة مسألة خطيرة في حياة الإنسانية بعامه وحياة المسلمين بخاصة، هي قضية العلاقة بين الشكل والمضمون، أو الجوهر والمظهر.

ونعني بالجوهر ابتداءً: مجموع الخصائص الخلقية والنفسية. والصور الذهنية، والخبرات والموازنات العميقة للفرد.

أما المظهر: فإنه مجموع ما يحمله الفرد من الصفات الجسمية، وما يمتلكه من الأشياء، وما يتحمله من وظائف، مما لا يعد على صلة مباشرة بكيونته الذاتية.

في البداية ليس الجوهر والمظهر شيئين منفصلين انفصالاً تاماً، بل بينهما علاقة تأثر وتأثير وأخذ وعطاء.

وإذا كان بين الظاهر والباطن مثل هذا التجاذب والتلازم، فإن من البدهي ألا يزهد الإسلام الناس في الشكل؛ فالصلاة موقف روحي بحث، ومع ذلك حرص النبي ﷺ على انتظام الصفوف فيها، والأمر قريب من ذلك في صفوف القتال، وحث الإسلام على نظافة المظهر...

إذاً ما هي المشكلة؟

تكمن المشكلة في اختلال التوازن بين الجوهر والمظهر، أو بين المضمون والشكل؛ فالبشر متفقون على أن اللباب هو الأصل، وأنه

ينبغي أن يُعطى من الاهتمام والعناية والبلورة القسط الأكبر، لأن كل الإنجازات الحقيقية التي تتم على السطح نابعة أساساً من إنجازات تمت على مستوى الكينونة والجوهر.

... وللمجتمع وما يقر من أعراف سلطان كبير على الناس، ولما كان الحكم الاجتماعي منصباً على الشكل كان الانحدار نحو الاهتمام بالشكل هو الأمر الطبيعي المتبادر إليه، أما العناية بالجوهر فيمكن أن تنمو عن طريق التربية الخاصة في الأسرة أو المدرسة، لكن ذلك سيظل ضعيف التأثير ما لم يكن المجتمع كله خاضعاً لمبادئ عليا خارجة عن إنتاجه، ولن يكون مصدر تلك المبادئ حينئذ الأرض، وإنما السماء.

.... وحينما يضعف الوازع الديني لدى المسلم، فإن الميزان يميل مباشرة لصالح المظهر. وبما أننا نعيش في عصر تتأثر فيه أكثر مما نؤثر، فقد أضيف إلى ضعف الوازع الديني عند أكثر الناس الوقوع تحت تأثير الفلسفة الغربية في جوانب الحياة المختلفة، تلك الفلسفة التي شكّلت من الإنتاج غير المحدود والحرية غير المحدودة والسعادة غير المتناهية ديناً جديداً اسمه التقدم! واقتضى ذلك توجهاً كلياً نحو الطبيعة لاستثمار كل شيء فيها! ثم استهلاكه بصورة جشعة لم يسبق لها مثيل.

... والناظر في سيرة النبي ﷺ والحياة العامة لصحابته ﷺ يجد أن السيطرة كانت للكينونة الداخلية، وليس لما يمتلكه الناس من أشياء؛ لأن المحور الأساسي للحياة الاجتماعية كان الإنسان، وليس الأشياء؛ أما الآن فقد صارت (الملكية) هي المحور، ويتجلى ذلك واضحاً في أمور عديدة منها:

١. تناقصت الألفاظ المستعملة في الدلالة على الجوهر، في حين زاد تداول الألفاظ الدالة على الأشياء، فحديث المجالس لم يعد يتمحور حول البطولات، والإنجازات، والمواقف الكريمة، والصفات الحميدة، وإنما حول العقارات، والسيارات، وأسعار السلع، وأثاث البيوت، والأرصدة المالية.

٢. الرغبة في مزيد من الإنتاج لتحقيق مزيد من الاستهلاك جعل اعتماد الناس على الآلة يتزايد يوماً بعد يوم، وصار الإنسان ترساً من تروسها، وصار دوره مكماً لدورها؛ ومن طبيعة هذا الشأن أن يزيد اهتمامنا بالمظاهر، ويشغلنا عن الحقائق.

٣. كانت قيمة وجود الإنسان مستمدة مما يحسنه ويتقنه، وصارت المعادلة الجديدة مستمدة من مقدار ما أملك، ومقدار ما أستهلك! وهذا ولّد الخوف الدائم من ذهاب الملكية. لأن ذهابها ذهاب مالمكها؛ واقتضى ذلك مزيداً من الشح والأثرة والتقاطع.

٤. علاقتنا بالمعرفة تبدلت؛ فقد كان حب العلم واكتساب المعرفة من أجل الفقه في الدين وتنمية الشخصية ومعرفة الحياة... وكانت العملية التعليمية عبارة عن اندماج بين العلم وطالبه، أما الآن فقد صارت علاقة طالب العلم بما يطلب علاقة تجارية بحتة، فهو يتعلم لينال الشهادة؛ وحفظه للمعلومات ظاهري ينتهي عند إفراغها على الورق في الامتحان!

٥. كانت عواقب الاتجاه إلى الشكل والتغافل عن المضمون كثرة اللذائذ وانعدام السعادة! واللذة إشباع الرغبة على نحو لا يتطلب نشاطاً، مثل لذة الحصول على مزيد من الربح، أو هي: تجربة لحظة من لحظات الذروة يعقبها في الغالب نوع من الكآبة، ولا سيما حين تكون غير مشروعة، حيث يبدأ التقريع الداخلي.

أما السعادة فهي: شعور مصاحب للنشاط الإنساني؛ وهي أقرب إلى أن تكون حالة من الوجود المتصل على ربوة رحبة؛ لأنها وهجٌ لكيونة الإنسان، ونشاطه الداخلي.

ويمكن القول: إن السعادة في مقياسنا الإسلامي تتعاضد كلما ردم المسلم من الفجوة القائمة بين معتقداته وسلوكياته، حيث يرضى المسلم عن أدائه، ويستشرف عاقبة المتقين.

كل هذه التحولات باتجاه الشكليات جعلت كثيرًا من أمة الإسلام قوة عددية ليس إلا؛ لأن الذي يفقد الصلة بمكوناته الأساسية لابد أن يصبح شكليًا. فهل تعيد الصحوة المباركة الأمر إلى نصابه بإعادة التوازن من جديد بين الشكل والمضمون، والجوهر والمظهر لنستأنف رسالتنا الحضارية؟! هذا ما نرجوه. وعلى الله قصد السبيل^(١).

• **الصفة الرابعة:** صفة ذي الوجهين التي جاءت في الحديث الصحيح:

«تجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»^(٢)، ويدخل في ذلك مداينة الناس ومدحهم في وجوههم وذمهم في غيبتهم. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يعدون هذا من النفاق. فعن مجاهد أن رجلاً قدم على ابن عمر رضي الله عنهما فقال له: (كيف أنتم وأبو أنيس الضحاك بن قيس؟ قال: نحن وهو إذا لقيناه قلنا له ما يحب، وإذا ولينا عنه قلنا غير ذلك. قال: ذاك ما كنا نعهده ونحن مع رسول الله ﷺ من النفاق)^(٣).

يقول ابن حزم رحمه الله: (الناس في أخلاقهم على سبع مراتب:

(١) مجلة البيان العدد (٦٨).

(٢) البخاري (٣٤٩٤)، مسلم (٢٥٢٦).

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٨٢.

١. فطائفة تمدح في الوجه، وتذم في المغيب، وهذه صفة أهل النفاق من العيابين، وهذا خُلُقُ فاش في الناس غالب عليه.
 ٢. وطائفة تدم في المشهد والمغيب، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين.
 ٣. وطائفة تمدح في الوجه والمغيب وهذه صفة أهل الملق والطمع.
 ٤. وطائفة تدم في المشهد وتمدح في المغيب وهذه صفة أهل السخف والنواكة.
 ٥. وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة، ويثنون بالخير في المغيب، أو يمسكون عن الذم.
 ٦. وأما العيابون البراء من النفاق والقحة فيمسكون في المشهد ويذمون في المغيب.
 ٧. وأما أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب. ومن كل من أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا^(١).
- فما أكثر مثل هذه الصفات في حياتنا وأخلاقنا، وما أكثر من يداهن في الحق فيسكت عن بيان الحق، أو يقول الباطل مدهانة للناس رغبة في دنيا فانية، ولا سيما مع الوجهاء والأمراء.

(١) الأخلاق والسير ص ١٠٨، ١٠٩.

• **الصفة الخامسة:** الشاغل في أداء الصلوات وقراءة القرآن وقلة ذكر الله ﷻ.

وقد مر بنا في صفات المنافقين قوله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وكذلك قوله ﷺ: «إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر... الحديث»^(١). وكذلك مر بنا قول ابن عباس رضي الله عنهما عن المنافق مع القرآن (نقل الحجاره أهون على المنافق من قراءة القرآن)^(٢).

فلننظر إلى أحوالنا اليوم مع الصلاة والقرآن وذكر الله ﷻ، وكيف نشاطنا في ذلك، وكيف مسارعتنا إلى ذلك، وكيف سعادتنا وخشوعنا. إنه لمن المؤسف والمؤلم أن يوجد منا من لا يقوم إلى الصلاة إلا ثقيلًا، فتفوته صلاة الجماعة أو بعضها في كثير من الأحيان. ولا يقرأ القرآن ولا يذكر الله إلا قليلًا، ولا يخشع في صلاته إلا نادرًا، وهذه كلها من شعب النفاق وخصاله، نعوذ بالله من ذلك.

• **الصفة السادسة:** عدم الاهتمام بالدين وبأحوال المسلمين، والإعراض عن الدعوة والجهاد في سبيل الله.

(١) مسلم (٦٥١) والبخاري (٦٥٧).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٣٥٤ / ٢.

صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من شعب النفاق»^(١).

وقد جاءت في القرآن آيات كثيرة تصف المنافقين بکراهيتهم للجهاد والفرح بالقعود عنه، بل إنهم ينشطون في التثييط عنه، وبث الخوف والإرجاف في المسلمين لإعاققتهم عنه. ووصفهم بأنهم لا يهتمون إلا بأنفسهم، ولا يهمهم بعد ذلك ما أصاب المسلمين من مصائب وكوارث.

قال الله ﷻ عنهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]، وقال ﷻ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨]، وقال ﷻ: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، والآيات في ذلك كثيرة.

والمقصود أن ترك الاهتمام بالدين، والإعراض عن الدعوة والجهاد، وعدم حديث النفس بذلك، هو من خصال وشعب النفاق وصفات المنافقين، فلنعرض أنفسنا على هذه الأوصاف، خشية أن تكون فينا ونحن لا نشعر.

(١) مسلم (١٩١٠).

وتحديث النفس بالغزو والدفاع عن الإسلام ونشره في الأرض لا يكون بمجرد القول والادعاء، وإنما لا بد أن يظهر في تصديق هذا الادعاء بالنية الصالحة، وإعداد النفس لذلك، والزهد في الدنيا، وأن نخرج عن دائرة الاهتمام بأنفسنا وأهلينا ودنيانا، إلى الاهتمام بأمر هذا الدين والدعوة إليه والجهاد في سبيل نشره، وأن يبدأ الإنسان بجهاد نفسه وهواه، ويتوب من ذنوبه، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: (جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم، فإن قهر هواه عز وساد، ومن قهره هواه ذل وهان وهلك وباد)^(١)، وهذا من أول مراتب الجهاد، ودليل على صدق تحديث النفس بالغزو. ومن علامة صدق الحديث مع النفس في الغزو الإنفاق في سبيل الله ﷻ، وسماحة النفس بذلك، لأن من صفات المنافقين البخل والشح. وإذا أنفقوا فبكرهية النفس، قال ﷺ عنهم: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، بل إنهم يشبطون الناس عن الإنفاق. قال الله ﷻ عنهم: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: ٧].

- الصفة السابعة: مخالفة الظاهر للباطن ومناقضة العلانية للسريّة. يقول ابن رجب رحمه الله: (النفاق الأصغر كله راجع إلى اختلاف السريّة والعلانية، كما قال الحسن)^(٢).

(١) غذاء الألباب للسفاريني ٣٥٨/٢.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٤٣٣.

وهذا أهم مظهر من مظاهر النفاق، وقد يكون سبباً للنفاق الاعتقادي والخروج من الملة إذا وصل إلى حد إبطان الكفر وإظهار الإسلام - عياداً بالله - وقد يكون نفاقاً عملياً إذا كان أصل الإيمان موجوداً، ولكنه يبطن الكذب أو الغدر أو الخيانة، أو غير ذلك، ويظهر أضدادها؛ وهذا هو الذي يهيم العبد المؤمن الحذر منه لكثرة من يقع فيه من المسلمين، وقد يؤول إلى النفاق الأكبر، كما قال ابن حجر رحمته الله (من أصر على نفاق المعصية خشي عليه أن يفضي إلى نفاق الكفر)^(١).

ولهذا النوع من النفاق صور عدة منها:

(أ) إظهار الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، مع أن الأمر في الباطن خلاف ذلك؛ حيث يكون حب الدنيا قد تمكن من القلب وسافر في أوديتها.

(ب) إظهار المحبة والشفقة للناس وسلامة القلب نحوهم، مع تلبس القلب بأمراض كثيرة تناقض هذا الادعاء؛ كأمراض الحسد والحقد وإضرار الشر والغش لهم. وإظهار الغيبة لهم في قالب النصيح والتوجع لهم. وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله إلى صورة من صور مخالفة الظاهر للباطن. حيث يقول: (ومنهم من يخرج الغيبة تارة في قالب ديانة وصلاح، فيقول: ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا

(١) فتح الباري ١/ ١١١.

بالخير. ولا أحب الغيبة ولا الكذب، وإنما أخبركم بأحواله. ويقول: والله إنه مسكين أو رجل جيد، ولكن فيه كيت وكيت... ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب، فيقول: تعجبت من فلان كيف لا يفعل كيت وكيت، ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت... ومنهم من يخرج الاغتمام، فيقول: مسكين فلان غمني ما جرى له. وقلبه منطو على التشفي به^(١).

(ج) إظهار الغيرة على الدين والحدب عليه، وأنه الهمُّ الشاغل للنفس، مع أن هذا الادعاء لا يتعد اللسان أو الكتابة، أما القلب فيكاد يفرغ من هذا الهم المدعى؛ لأنه قد امتلأ باهتمامات أخرى تسبق الاهتمام بالإسلام في سلم الأولوية. وهذه الصورة عادة ما تظهر عند بعض الوعاظ أو الخطباء أو الكتاب الذين يظهرون الحرقه والألم على الإسلام والمسلمين، والله أعلم بما في القلوب. فلنتبه لخطر هذه المناقضة، ولنحذر هذه الفتنة؛ فهي من صفات المنافقين التي ذكرها الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وعندما اعتذر المنافقون عن تخلفهم يوم الحديبية بانشغالهم بالأموال والأولاد كذبهم الله ﷻ بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٣٧-٢٣٨ (باختصار).

وبين لهم أن الذي في قلوبهم هو سوء الظن بالله ﷻ: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

(د) إظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع مخالفة ذلك في غفلة الناس من غير عذر في ذلك، قال ﷻ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

قال ابن الأعرابي: (أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد)^(١).

وقال أبو عبيد السري: (النفاق خبث السريرة، فاتق الله أن يرى الناس أنك تخشى الله ﷻ، وقلبك فاجر)^(٢).

• الصفة الثامنة: الوقوع في الحيل المحرمة:

إن التحايل بحيل يحل بها ما حرم الله ﷻ تعد ضرباً من ضروب الخداع والنفاق ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

ولو أن من يقع في الحرام يعتقد بحرمة ما وقع فيه، ويرى نفسه عاصياً مذنباً، لكان أهون بكثير ممن يفعل الحرام أو يفتي به معتقداً

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٦٩٨٧).

(٢) تاريخ دمشق ٨٦/٥.

حله بحيلة باطلة أو شبهة داحضة أو تأويل فاسد، فجرم هذا وإثمه عند الله ﷻ أعظم بكثير ممن يرتكب المحرم معتقداً حرمة. ومن الأمثلة المشهورة في ذلك تحليل المرأة المطلقة ثلاثاً من زوجها بنكاحها ثم طلاقها لتحليلها لزوجها وليس لقصد الزواج والنكاح، وهو ما يسمى عند الفقهاء بالتيس المستعار. وكذلك من يتحايل على الربا ببيوع العينة. يقول ابن القيم رحمه الله: (فلما كان القائل آمنت مظهرًا لهذه الكلمة غير مرید حقيقتها المرعية المطلوبة شرعاً بل مرید لحكمها وثمرتها فقط: مخادعاً كان المتكلم بلفظ بيع واشتریت وطلقت ونكحت وخالعت وآجرت وساقیت وأوصیت غير مرید لحقائقها الشرعية المطلوبة منها شرعاً، بل مرید لأمر آخر غير ما شرعت له أو ضد ما شرعت له: مخادعاً. ذاك مخادع في أصل الإيثار. وهذا مخادع في أعماله وشرائعه. قال شيخنا: وهذا ضرب من النفاق في آيات الله تعالى وحدوده، كما أن الأول نفاق في أصل الدين، يؤيد ذلك ما رواه سعيد بن منصور عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه جاءه رجل فقال: ابن عمي طلق امرأته ثلاثاً أيحلها له رجل. فقال: من يخادع الله يخدعه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سئل عن العينة، يعني بيع الحرية فقال: إن الله تعالى لا يخدع. هذا مما حرم الله تعالى ورسوله... فسمى الصحابة من أظهر عقد التبائع ومقصوده به الربا: خداعاً لله. وهم المرجوع إليهم في هذا الشأن، والمعول عليهم في فهم القرآن.

وقال أيوب السخيتاني في المحتالين: يخادعون الله كما يخادعون الصبيان، فلو أتوا الأمر عيانا كان أهون عليّ.

وقال شريك بن عبد الله القاضي في كتاب الحيل: هو كتاب المخادعة، وكذلك المعاهدون إذا أظهروا للرسول ﷺ أنهم يريدون سلمه، وهم يقصدون بذلك المكر به، من حيث لا يشعر، فيظهرون له أماناً، ويبطنون له خلافه، كما أن المحلل والمرابي يظهران النكاح والبيع المقصودين. ومقصود هذا: الطلاق بعد استفراش المرأة. ومقصود الآخر: ما تواطأ عليه قبل إظهار العقد من بيع الألف الحالة بالألف والمتين إلى أجل، فمخالفة ما يدل عليه العقد شرعاً أو عرفاً: خديعة. قال: وتلخيص ذلك: أن مخادعة الله تعالى حرام، والحيل مخادعة لله.

بيان الأول: أن الله تعالى ذم المنافقين بالمخادعة، وأخبر أنه خادعهم. وخدعه للعبد عقوبة تستلزم فعله المحرم.

وبيان الثاني: أن ابن عباس وأنساً وغيرهما من الصحابة والتابعين أفتوا: أن التحليل ونحوه من الحيل مخادعة لله تعالى. وهم أعلم بكتاب الله تعالى.

... وإن المنافق لما أظهر الإسلام، ومراده غيره، سمّي مخادعاً لله تعالى، وكذلك المرابي، فإن النفاق والربا من باب واحد، فإذا كان

هذا الذي أظهر قولاً غير معتقد ولا يريد لما يفهم منه، وهذا الذي أظهر فعلاً غير معتقد ولا يريد لما شرع له: مخادعاً، فالمحتال لا يخرج عن أحد القسمين... إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قرده لما احتالوا على إباحة ما حرم الله تعالى عليهم من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد. قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الخيل على المناهي الشرعية، ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه. إذ الفقيه من يخشى الله بحفظ حدوده وتعظيم حرماته والوقوف عندها. ليس المتحيل على إباحة محارمه وإسقاط فرائضه. ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى عليه السلام وكفراً بالتوراة، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال ظاهره ظاهر الاتقاء وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا والله أعلم مسخوا قرده... وإن بني إسرائيل كانوا أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل، كما قصه الله تعالى في كتابه، وذلك أعظم من أكل الصيد الحرام في يوم بعينه، ولذلك كان الربا والظلم حراماً في شريعتنا، والصيد يوم السبت غير محرم فيها. ثم إن أكلة الربا وأموال الناس بالباطل لم يعاقبوا بالمسخ كما عوقب به مستحلو الحرام بالخيطة، وإن كانوا عوقبوا بجنس آخر من العقوبات أمثالهم من العصاة. فيشبه والله أعلم أن هؤلاء لما كانوا أعظم جرماً إذ هم بمنزلة المنافقين، ولا

يعترفون بالذنب، بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم كانت عقوبتهم أغلظ من عقوبة غيرهم^(١).

فهل بقي بعد هذا النقل الصريح عذر لمن يتحايل على تحليل الحرام أو إسقاط الواجبات بحيل وشبهات وتأويلات باطلة، سواء كان ذلك لنفسه أو يفتي به غيره؟! إن هذا الأمر خطير وجرمه عظيم، وعليه فينبغي لمن خاف مقام ربه وخاف عذاب الآخرة أن لا يخادع نفسه بتأويلات باطلة... يمتزج فيه الهوى والشهوة بالشبهة والتأويل الباطل في تبرير مخالفة شرع الله ﷻ. وكما مر بنا في النقل السابق فإن كون العبد يقع في مخالفة شرعية معتقداً حرمتها وشاعراً بالذنب، وأنه ارتكب محرماً أهون بكثير وأخف جرماً وإثماً من كونه يقع في الحرام أو ترك الواجب مستحلاً لذلك بحيلة أو شبهة باطلة، يضيفي عليها الشرعية على فعله، فإن هذا ضرب من ضروب النفاق الخطيرة، لما فيه من الاستهانة بالله ﷻ وحرماته.

• **الصفة التاسعة:** الانشغال بعيوب الناس، وتتبع عوراتهم، وغيبتهم.

عن أبي بردة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه

(١) إغاثة اللهفان ١ / ٣٤٠-٣٤٤ باختصار.

من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته، ومن يتتبع الله عورته يفضحه في بيته»^(١).

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخياركم» قالوا: بلى. قال: «الذين إذا رؤوا ذكر الله»، «أفلا أخبركم بشرا راكم» قالوا: بلى. قال: «المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت»^(٢).

ويقول الإمام أحمد رحمه الله: (من أحب الرياسة طلب عيوب الناس أو عاب الناس)^(٣). وقال عبد الله الجبلي: (من رأيته يطلب العثرات على الناس فاعلم أنه معيوب)^(٤). وقال أحد السلف: (من علامات الاستدراج للعبد عماه عن عيبه، وتطلعه إلى عيوب الناس)^(٥).

وما أجمل ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله وهو يعدد حكم الله ﷻ في تخلية العبد بينه وبين الذنب، فيقول: (التاسع والعشرون: أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها، فإنه في شغل بعيبه ونفسه

(١) رواه أحمد (١٩٧٧٦) وأبو داود (٤٨٨٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٤٠).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٢٣) وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٤٦).

(٣) الآداب الشرعية ٢ / ٣٤١.

(٤) التوبيخ والتنبيه ص ١٠١.

(٥) مفتاح الأفكار ١ / ١٤٠.

وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس. وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس، فالأول علامة السعادة، والثاني علامة الشقاوة^(١).

يتبين لنا من خلال الأحاديث والآثار السابقة سوء هذه الخصلة وذمها، وأنها تنم عن نفاق ومرض في القلب وضعف إيمان. ويفهم هذا من قوله ﷺ «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه».

وما أكثر اليوم من يقع فيها ليس من عامة الناس فحسب، بل إننا نراها تصدر من بعض المنتسبين للعلم والدعوة، فتراهم قد انشغلوا عن عيوب أنفسهم بتتبع عيوب وعثرات غيرهم من بعض الدعاة والعلماء، فتراهم يرمون غيرهم بما ليس فيهم أو يضحمون أخطاءهم إن وجدت، ويبالغون في نقدها وتحميلها ما لا تحتمل، وهذا كله يتم بذريعة الغيرة على دين الله ﷻ وكشف أهل البدع والضلال، والله أعلم بما في قلوبهم وسرائرهم. وإن مما يدل على عدم صدق بعضهم فيما يدعيه من القيام بواجب الدعوة وبيان ضلال المضللين، ذلك التناقض والمعايير المزدوجة الذي يمارسونها، حيث نجدهم يلوذون بالصمت إزاء ما يقوم به المفسدون المنافقون من إفساد لأديان الناس وأموالهم وأعراضهم في مجتمعات المسلمين، فأين الغيرة، وتتبع ضلالات هؤلاء المفسدين وفضحهم؟ بل وصل الحال إلى أن نجد

(١) طريق الهجرتين ١ / ٢٧١.

المدح والثناء من هؤلاء المفتونين لأهل الفساد والظلم والطغيان، والدفاع عنهم في الوقت الذي انبروا فيه لتتبع عشرات إخوانهم من الدعاة والفرح بتصيدها، نعوذ بالله من الفضيحة والخذلان.

• الصفة العاشرة: حب المدح من الناس والبحث عن الشهرة

وهذا باب من أبواب الرياء والسمعة، الذي يتسرب منه النفاق إلى القلب ويعشعش فيه.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوث)^(١).

ويقول إبراهيم بن أدهم رحمه الله: (لم يصدق الله من أحب الشهرة)^(٢).

وهذا من الآفات القلبية التي تدل على مرض القلب وتلبسه بشعبة من شعب النفاق، ولقد انتشرت هذه الآفات عند بعض المنتسبين اليوم للعلم والدعوة، ولا سيما وبعد هذه الثورة الإعلامية من مجلات وتلفاز وقنوات فضائية، حيث ظهر فيها بعض الدعاة

(١) الفوائد ص ١٤٩.

(٢) حلية الأولياء ٨ / ١٩.

وطلبة العلم وتزينوا فيها في المظهر والكلام والجرأة على الفتوى، مما ينم عن محبة بعضهم للظهور والشهرة ومديح الناس. وأخطر من ذلك أن يتزين الواحد منا بما ليس فيه، ويحب أن يمدح بما لم يفعل، فما أشنعها من صفة، ذمها الله ﷻ في كتابه وذمها رسوله ﷺ في حديثه.

قال الله ﷻ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وجاء في سبب نزول هذه الآية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه «أن رجلاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزو وتحلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ. فإذا قدم النبي ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا، فنزلت ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾^(١). وقال الرسول ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»^(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وصيته المشهورة إلى أبي موسى الأشعري: «ومن تزين بما ليس فيه شانه الله».

يعلق الإمام ابن القيم رحمه الله على هذه الوصية، فيقول: (وأساس النفاق وأصله هو التزين للناس بما ليس في الباطن من الإيمان. فعلم

(١) البخاري (٤٥٦٧)، مسلم (٢٧٧٧).

(٢) البخاري (٥٢١٩)، مسلم (٢١٣٠).

أن هاتين الكلمتين من كلام أمير المؤمنين مشتقة من كلام النبوة، وهما من أنفع الكلام وأشفاه للسقام. وأيضًا فإنه أخفى عن الناس ما أظهر الله خلافه، فأظهر الله من عيوبه للناس ما أخفاه عنهم، جزاء من جنس عمله^(١).

• الصفة الحادية عشرة: عدم التألم من جراحات الذنوب

إن الاستهانة بمعصية الله ﷻ وعدم الشعور بالألم والحزن جراء اقتراف الذنوب، هو علامة خطيرة على ضعف الإيمان ومرض القلب واستهانة بعظمة الله ﷻ، لأن المؤمن هو الذي تسره حسنته وتسوؤه سيئته، والمنافق من لا تسوؤه سيئته ولا تسره حسنته، كما جاء في الأثر. يقول ابن القيم رحمه الله: (وقد يمرض القلب ويشد مرضه، ولا يعرف به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها: بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته، وما لجرح بميت إيلام)^(٢).



(١) أعلام الموقعين ٢/ ١٦٩.

(٢) إغاثة اللهفان ص ٦٨ / ١.